دراسات قرآنية

محمد قطب

دار الشروق

دراسات قرآنية

الطبعة الثالثة

١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

الطبعة الرابعة

١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م

الطبعة الخامسة

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

الطبعة السادسة

١٤١١ هـ - ١٩٩١ م

الطبعة السابعة

١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٢٩٣٣٣
فاكس : ٣٩٣٤٨١٤ (٠٢) تلكس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص .ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣
برقيا : داشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE

محمد قطب

دراسات قرآنية

دار الشروق

بسم الله الرحمن الرحيم

« كتابٌ أنزلناهُ إليكَ مُبارك ليدّبّرُوا آياته وليتذكّر أولُوا الألباب . »

صدق الله العظيم

مقدمة

لى مع القرآن قصة طويلة !

بدأت أقرؤه ـ لنفسى ـ فى التاسعة من عمرى ، دون موجّهٍ ولا شارح ولا معين ! إنما هى كانت رغبة ذاتية عندى فى قراءة كتاب الله ، وحفظه كذلك إن أمكن !

وبالفعل حفظت الربعين الأولين من سورة البقرة ، ولكنى لم أصبر للحفظ أكثر من ذلك ، ولم أستطع أن أقاوم الرغبة فى قراءة الكتاب كله من أوله إلى آخره . . فقرأته فى تلك السنة فى عطلة الصيف .

وبديهى أننى لم أفهم الجزء الأكبر مما قرأت ! فما كان أحد يشرح لى ، وما كنت أستعين بأحد لكى يفعل ! ولكن ذلك لم يخذّلنى عن متابعة القراءة إلى نهاية المصحف ، بقليل من الإدراك ، وتطلع إلى مزيد .

واستوقفتنى فى أثناء تلك القراءة مواضع معينة من القرآن ، فعدت أتلوها المرة بعد المرة ، وقد عرفت مكانها من الكتاب .

استوقفتنى القصص كلها بصفة عامة ، وقصة سيدنا موسى بصفة خاصة ، فى كل موضع ترد فيه . وكان منظر السحرة وثعابينهم وعصا موسى تلقفها وتأتى عليها ، منظرًا خلابًا بالنسبة لى ، أظل أتمثله مرة ومرة ومرة . . وكذلك انفلاق البحر « كل فرق كالطود العظيم » . . ولكن منظرًا معينًا ظل يشدنى إليه شدًا ، ينطلق معه خيالى الطفلُ إلى أقصى المدى فلا يقدر على الإحاطة به ـ ومن يقدر ؟! ـ فأعود أتملاه من جديد ، وتهتز نفسى هزة عميقة فى كل مرة ، فأقرأ الآية من جديد :

« ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال : رب أرنى أنظر إليك ! قال : لن ترانى ! ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى ! فلما تجلّى ربه للجبل جعله دكًا ، وخرَّ موسى صعقًا ، فلما أفاق قال : سبحانك ! تبت إليك وأنا أول المؤمنين » [1] .

---

(١) سورة الأعراف : ١٤٣ .

وفى كل مرة أنظر ـ مع موسى ـ إلى الجبل ! ثم أترقب فى كل مرة أن يثبت الجبل فيرى موسى ربه !! ثم أرى أنه لم يستقر ! وأتخيل صورة ارتجاج الجبل وهو يندك ، حتى يخر موسى صعقًا ، ويظل هنالك مغشيًا عليه فترة حتى يفيق .

لست أدرى كم مرة قرأت قصة موسى فى القرآن وأنا طفل ، ولا كم مرة عرّجت على سورة الأعراف بصفة خاصة . ولكنى أذكر أنه ما من مرة قرأت الآية إلا وتتبعتها بخيالى كأننى أقرؤها أول مرة ! وأروح أترقب أن يثبت الجبل وتتم رؤية موسى لربه ، وأنا أعلم من قراءاتى السابقة أن هذا لم يحدث ! ، ولكنى أظل أترقب حتى تجيء الزلزلة العنيفة التى تدك الجبل فأعلم أن موسى لم ير ربه وإنما خرّ مغشيًا عليه !

تلك فترة قد خلت ، بخيالاتها الطفلة ، وإدراكها المحدود !

ثم عدت إلى الكتاب مرة أخرى فى مرحلة الصبا ما بين الثالثة عشرة والسابعة عشرة ، بإدراك أكبر هذه المرة ، وعلى نحو جديد !

كنت فى هذه الفترة أعيش فى جو من « الروحانية » ، ومن الاهتمام بالفن فى ذات الوقت .

كنت أعيش فى إشراقة روحية دائمة مع الله ، وفى خيالات دائمة كأنها أحلام اليقظة ، وإن كانت لا تشغلنى ـ كثيرًا ـ عن واقع الأرض المحسوس ! وكنت قد بدأت أكتب الشعر ، أو ما يخيّل إلىّ يومئذ أنه شعر ! وهو فى حقيقته ـ وإن كان موزونًا ـ أقرب إلى خيال الأطفال وعواطف الأطفال !

وفى تلك الفترة كان القرآن يهزنى كما يهز الصوفىّ فى سبحاته . وخاصة حين كنت أسمع تلاوته من الشيخ محمد رفعت فى المذياع . . كنت أحس أنه يقرأ بروحه لا بلسانه . يقرأ من أعماق قلبه . وكان صوته المعبّر الشجىّ يلتقى تمامًا بما أحسه يومئذ من أحاسيس ، فيخيل إلىّ وأنا أستمع إليه أننى أستمع إلى الملأ الأعلى ، وأن نبرات صوته أطياف من النور . وغلب على وهمى ـ بغير منطق بالطبع ! ـ أن القرآن هكذا أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ! بهذه النغمات الصافية التى يشع منها النور . . وكان من أشد تلاواته تأثيرًا فى نفسى تلاوته لسورة مريم . . وما تزال !

كنت فى هذه الفترة أكثر إدراكًا لمعانى القرآن مما كنت فى الطفولة بطبيعة الحال . . ومع ذلك فلم أكن ـ فى حالتى تلك ـ أقف طويلاً عند موضوعاته كما كنت أصنع حتى فى أيام الطفولة ! كان يهزنى ككل ! بصرف النظر عن الموضوع ! وكانت قراءته أو الاستماع إليه

ينقلاننى نقلاً من عالم الأرض المحدود إلى عالم غير محدود . . عالم لا يهمنى ـ وقتئذ ـ تبين ملامحه ! إنه عالم مسحور !

كانت موسيقى النسق القرآنى الفريد تهزنى وتبهرنى ، فأسبح على أنغامها غير ملتفت كثيرًا إلى ما ألتقى به ـ فى أثناء هذه السباحة الروحية ـ من موضوعات أو «مفاهيم» . . لا لأنى ـ يومئذ ـ لا أدركها ، فقد كانت حصيلتى الثقافية قد نمت بقراءة ما قرأت من كتب العقاد وطه حسين والمازنى وهيكل وغيرهم . . بحيث أستطيع أن أستوعب من معانى القرآن ومفاهيمه قدرًا غير ضئيل . . ولكنى مشغول عن ذلك بتلك الانطلاقة الروحية مع القرآن من ناحية ، ثم بالجانب الفنى من النسق القرآنى من جهة أخرى . . بصرف النظر عن الموضوع ! وإن كانت موضوعات « القدرة الخارقة » ذات صدى خاص فى نفسى أكثر من غيرها من الموضوعات !

فى تلك الفترة كانت سورة مريم ـ بصفة خاصة ـ تجذبنى إليها جذبًا قويًا لا أستطيع له دفعًا ، بل لا أحب له دفعًا !!

كانت فيها القدرة الخارقة من ناحية فى ولادة الغلام لزكريا وخلق عيسى بغير أب . وكان فيها النغم الموسيقى العجيب النسق من ناحية أخرى ، فإذا أضيف إليهما تلاوة الشيخ رفعت فقد بلغت فى نفسى مبلغًا من التأثير لا يمكن وصفه بالكلمات !

ومازلت أذكر إلى هذه اللحظة تأثير هذه السورة فى نفسى من أولها إلى آخرها . . وإن كانت أجزاء معينة منها كان لها فى نفسى تأثير أشد . أولها تلك الحروف فى مفتتح السورة، التى لا مثيل لها فى كل ما بدئت به السور من حروف .

كٓهيعٓصٓ . . عجيبة فى ذاتها ، وأعجب ـ فى حسى يومئذ ـ بتلاوتها ، وخاصة العين الممدودة التى تقرأ كالمشددة ! ثم بداية الكلام بعدها هكذا : «ذكر رحمة ربك عبده زكريا»! ثم الجو المسحور (بالنسبة لى وقتها) الذى توحى به كلمه « نداءً خفيًا » : « إذ نادى ربه نداء خفيا » . ثم هذا النداء ذاته : « قال : رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا، ولم أكن بدعائك رب شقيا » . . كم كانت تهزنى تلك الصورة : « وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبًا » فأتخيلنى ـ وأنا بعد صبى ـ فى مثل تلك الصورة فتهتز نفسى هزة لا أستطيع أن أقاومها ! ثم المفاجأة ـ بعد هذا الدعاء مباشرة ـ بإجابة الدعاء : « يا زكريا، إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى ، لم نجعل له من قبل سمياً » ! تلك الصلة الخفية بين هذا العبد الصالح وربه، التى تجعله ينطق بالدعاء فيستجيب الله له على الفور [بحسب ظاهر السياق فى الآية] . .

كانت تنقلنى إلى تلك السبحات الروحية التى تغمر روحى بأطياف من النور ! ثم . . القدرة الخارقة : كذلك قال ربك هو علىّ هين ، وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئًا !» والآية . . «قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليالٍ سويا » كلها . . كلها . . فى ذلك الجو السابح فى النور! وخاصة ختام القصة : «وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيًا»!!

ثم قصة مريم كلها . . بما فيها من خوارق . . وما فى نسق التعبير من موسيقى . . روعة تأخذ بحسى لا يشابهها شىء على الإطلاق ! ووقفات عند : « فناداها مِنْ تحتِها . . » أو على القراءة الأخرى : « فناداها مَنْ تحتَها . . » كلتاهما تهز النفس بالمفاجأة التى تبدو فيها القدرة الخارقة . . وكلام عيسى للناس : « قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيًا . . . » وختام القصة مرة أخرى : « والسلام علىّ يوم ولدتُ ويوم أموت ويوم أبعث حيًا » !

ولم يكن يفوتنى ـ يومئذ ـ من الناحية الفنية ذلك الفرق بين الختامين : « وسلام عليه . . » والسلام علىّ . . » هناك « سلام » ، وهنا « السلام » . . وكان يوحى ذلك إلى يومئذ بأن المقصود هو إعطاء أهمية خاصة لعيسى ، ورفعه فوق يحيى درجات !

كما لم يكن يفوتنى ـ من الناحية الفنية ـ ذلك التغيّر الموسيقى فى نهاية قصة عيسى ، فى قوله تعالى : «ذلك عيسى ابن مريم ، قول الحق الذى فيه يمترون» والآيات الست التى تتلوها ، حيث يختلف الرویّ مرة واحدة فى السورة كلها عما قبله وما بعده ، إذ تنتهى الآيات بالياء الممدودة « . . يوم أبعث حيا » أو الهمزة المفتوحة « ولم تك شيئًا » إلا هذه الآيات السبع من السورة كلها (غير أحرف الابتداء : كهيعص) . . لم يكن يفوتنى ، لشدة اشتغالى بالناحية الفنية إلى جانب الجو الروحى ، فكنت أحاول أن أعللها بأنها لفت نظر إلى شىء هام يراد لفت النظر إليه ، وهو فى الوقت ذاته خارج عن سياق القصة ذاتها ، وهو التقرير الربانى بأن هذه هى حقيقة عيسى ابن مريم الذى امترى فيه الممترون . . حتى إذا انتهى التعليق ـ أو التقرير ـ وعادت السورة تروى قصص عدد آخر من الأنبياء ، عاد الرویّ الأصلى الذى استخدم فى القصص من أول السورة : « واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقًا نبيًا . . . » .

ولأمر مّا كانت هاتان الآيتان من السورة تهزاننى : « واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد ، وكان رسولاً نبيًا ، وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا » ولا أذكر الآن لماذا على وجه التحقيق ! وإن كان لابد من سبب معين أو أسباب . . وربما كان انشغالى وقتها بنسب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى إسماعيل ، وإنكار أهل الكتاب النبوة فى فرع إسماعيل واحدًا من هذه الأسباب !

وأذكر كذلك تأثرى العميق بهذه الآيات : « وقالوا اتخذ الرحمن ولدًا . لقد جئتم شيئًا إدًّا ، تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدًّا ، أن دعوا للرحمن ولدا » .

ثم هذه الآية : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا » . . ويلفتنى فيها بشدة أن النعيم هنا ليس نعيمًا حسيًا . . إنما هو الود . . الود من الرحمن . . وكانت هذه ـ فى الجو الروحى الذى أعيشه ـ ذات رنين خاص .

أما الآية الأخيرة فكان الجانب الفنى فيها يصل بى إلى الغاية : « وكم أهلكنا قبلهم من قرن ، هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزًا » . . ورغم أننى لم أكن أعلم على وجه التحديد معنى كلمة « ركزًا » فقد كان يتمثل لى « الراوية » فى المسرحيات القديمة الذى يعقّب على الأحداث بعد انتهائها ليعطى العبرة للمستمعين . . المسرح خالٍ من آثار هاتيك القرون . . ثم يجيء السؤال كأنه همس فى ذلك الصمت المطبق ، صمت الفناء : « هل تحس منهم من أحد ؟ أو تسمع لهم ركزا ؟ » ويجيب الصمت بالنفى . . ويسدل الستار !

فى تلك الفترة كذلك كانت تجذبنى سور بعينها فى القرآن ـ لا من ناحية موضوعها ! ولكن لأنها تختلف فى الرويّ عن الغالب فى سور القرآن [وهو الياء الممدودة أو الواو الممدودة وبعدها الميم أو النون] . وكان من بين هذه السور سورة طه ، وسورة الفرقان ، وسورة ص ، وسورة الفتح ، وسورة ق ، وسورة النجم ، وسورة القمر . . ولكن « النجم» كانت هى القمة فى حسى يومئذ من حيث التنغيم الموسيقى بعد مريم ، فكانت لها فى نفسى جاذبية خاصة . .

أما هذه الآية من سورة القمر : « . . فالتقى الماء على أمر قد قدر » فكانت روحى تسبح فيها سبحات . . « ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر . وفجرنا الأرض عيونا ، فالتقى الماء على أمر قد قدر » ! إنه ليس ماءً إذن هذا المنهمر من السماء والمتفجر من الأرض . . إنه قدر ! قدر يتم . . صورته الحسية ماء . . وهو فى حقيقته قدر . . والصورة الحسية ذاتها ! ماء منسكب من السماء ، وماء يخرج من الأرض . . وحين يمس الماء المنسكب من السماء ماء الأرض المتفجر . . يتم القدر ! كما تحدث الشرارة حين يتلامس سلك الكهرباء الموجب وسلكها السالب . . وإن كانت هنا لا توجد شرارة . . وإنما يُقَدَّرُ قدر !

تلك فترة أخرى قد خلت . . بكل سبحاتها الروحية ، وكل انشغالها بالجانب الفنىّ من الحياة !

* * *

ثم كانت فترة الشباب الباكر ، وكانت جولة أخرى مع الكتاب . . جولة مختلفة تمامًا عن السابقة !

فإن كان هناك الجو الحالم ، وسبحات الروح ، وموسيقى النغم ، وجمال الفن . . . فهنا صحوة ذهنية كاملة ، قلما تحلم ! وبحث عن الأفكار المجردة ، والمفاهيم الكلية . . بحث أقرب إلى التجريد الفلسفى . . لا يرى الأشياء فى صورتها المحسوسة ، إنما يراها مبلورة فى «فكرة» ، ومصورة فى « مفهوم كلى » !

كنت فى هذه الفترة أدرس فى الجامعة ؛ ورغم أنى كنت أدرس « الأدب » الانجليزى ، أى أنه ينبغى أن أعيش فى جو الأدب والفن ، والموسيقى والحلم . . إلا أنى كنت قد عبرتُ هذه الفترة من عمرى من قبل ! وكما كنت فى الفترة السابقة مشغولاً بالفن لحسابى الخاص لا لحساب الدراسة ، إذ كنت فى دراستى الثانوية فى القسم العلمى لا القسم الأدبى ! فكذلك شعرت اليوم أننى « أتفلسف » لحسابى الخاص ، ولا أعيش كثيرًا فى جو الدراسة ، إلا بمقدار ما يمكن أن يدخل من هذا « التفلسف » فى بعض الدروس أو بعض الدراسات !

وفى هذه الفترة عكفت على القرآن أبحث فيه عن « فكرة » الله سبحانه ، مقارنة بفكرة الله فى اليهودية المحرفة والمسيحية المحرفة ، وبالنرفانا الهندية ، والديانات الوثنية الأخرى من آلهة الفراعنة إلى أساطير اليونان إلى أساطير الفرس . . إلى البوذية وغيرها من الديانات . .

وما أزعم أننى أدركت يومئذ من تلك القضايا ما أدركه اليوم مثلاً ، بصرف النظر عن صحته أو خطئه ، وعمقه أو ضحالته . . ولكنى أقول فقط إن هذا هو الذى كان يشغلنى فى عكوفى على القرآن . . الله . . صفاته . . هل يمكن تصوره ؟ هل يمكن تصور كيف يُجْزى قدره فى الكون ؟ وهيمنته سبحانه على الكون كله . . هل يمكن تصورها أو تصويرها بالألفاظ ؟

ثم . . المخلوق البشرى . . أى شىء هو ؟! ما حدوده ؟ ما دوره ؟ ما قيمة وجوده فى هذا الكون ؟!

ثم . .

الخير والشر . . والجمال والقبح . . هل هى قيم مطلقة أم قيم نسبية ؟ وهل القيم الإسلامية فاضلة لأن الله فرضها وسماها ؟ أم فاضلة « فى ذاتها » ! وما المقياس؟ هل هناك مقياس نقيس إليه هذه القيم ؟ وما هو ؟ ومن صنع من ؟ ومن الذى يحق له أن يضع المقياس؟

والحياة الأخرى . . ضرورة هى ؟ لها دور معين تؤديه في الحياة الدنيا ؟ أم هى فقط محل القصاص الربانى الكامل والجزاء العادل ؟

والعبادات . . أهى لأن الله فرضها ؟ أم التعبد رغبة فطرية فى البشر حتى ولو لم يأمرهم به الله ؟

والوحى . . ما هو ؟ بأى طريقة يتم ؟ أى جهاز فى هذا الكيان البشرى يتلقاه ؟ وأين تلك الأجهزة الخفية من كيان الإنسان ؟ هل لها « مكان » معين فيه ؟ أم كيف تعمل . . وكيف تتلقى . . وكيف تعى ؟

إلى آخر تلك الأمور التى علمت ـ فيما بعد ! ـ أن علماء الكلام خاضوا فيها ، وأنهم قالوا ـ فى معظم الأحيان ـ كلامًا لا يسمن ولا يغنى من جوع ! وعلمت كذلك ـ فيما بعد ! ـ أنه ـ فى صورته التجريدية البحتة ـ لون من التفكير الضائع لا يستحق أن يبذل الجهد فيه !

حقيقة أننى لم أخض موضوعًا واحدًا من هذه الموضوعات بروح الشك الذى كنت أسمع عنه عند « الفلاسفة » . . وأمقته كذلك ! وحقيقة أنه كان أقرب إلى التأملات منه إلى التفكير المضنى . . تأملات هادئة ، ولكنها ذهنية . . تعيش فى عالم التجريد لا فى عالم المحسوس . .

وانقضت تلك الفترة لأعود إلى القرآن من جديد !

* * *

فن مرة أخرى ؟

نعم ولكن من نوع آخر ، وعلى مستوى جديد !

كان الشقيق يعدّ كتابه « التصوير الفنى فى القرآن » يتحدث إلىّ فى بعض جوانبه فتستهوينى وتفاجئنى مفاجأة تامة . . على كل ما عشته من قبل مع القرآن فى جو الفن ! أو على الأقل تفسر لى أسباب تأثرات سابقة لم أكن أدرى كنهها . . وتضع يدى على مفاتيح الجمال الفنى فى التعبير القرآنى فأروح أراجعه مرة أخرى بوعى جديد . .

يمكن أن نقول إنه تأثر فنيّ واعٍ ، غير ذلك التأثر المبهم الذى كان من قبل ، والذى كانت تطويه فى جنباتها سبحة الروح !

وحين تكون فى يدك المفاتيح . . وحين تعود إلى الأماكن التى رُدْتَهَا من قبل فلم تستطع فتح مغاليقها ، فتجرب أن تفتح فتنفتح بين يديك . . إنها متعة هائلة ، وفسحة هائلة . . وثروة هائلة !

وعدت « أستمتع » بالقرآن من جديد ، على ضوء هذا النور الكاشف الجديد !

ولا أستطيع اليوم أن أقول أين كانت تقودنى قدماى فى صحبتى للقرآن لو لم يحدث هذا المنعطف بكتاب « التصوير » . ولكن الذى لا شك فيه أن كتاب « التصوير » قد أعطانى دفعة هائلة فى اتجاه معين لم أكن لأتجه إليه بغير ذلك الكتاب . .

* * *

ومع كتاب آخر من كتب الشقيق ، تبدأ جولة جديدة مع القرآن !

ذلك هو كتاب « العدالة الاجتماعية فى الإسلام » (١) .

لم يكن الحديث عن « العدالة الاجتماعية » فى الإسلام جديدًا على حسّى ولا على تفكيرى . . بل لقد كنت فى مجادلاتى مع الشيوعيين من قبل أقول لهم ـ عن إيمانٍ واعٍ ـ إن الإسلام هو النظام الأفضل ، لأنه يعطى العدل الاقتصادى الذى تحصر الشيوعية نفسها فيه ، ثم لا ينحصر مثلها فى حدوده ، ولا يجرد الإنسان من كيانه الروحى الأصيل فيه ، بل يعطيه جانب الروح وجانب المادة فى آن معًا ، لا يغفل هذا ولا ذاك . . وإن كان بسط الموضوع فى كتاب « العدالة » كان أوسع ولا شك من كل ما فكرت فيه أو وصلت إليه من قبل .

ولكن الجديد حقًا هو فكرة « التوازن » فى الإسلام !

لقد كان شىء غامض منها يطوف فى فكرى وأنا أتحدث مع المجادلين عن الروح والجسد . . والروح والمادة . . والجانب الاقتصادى والجانب الخلقى أو الإنسانى . .

ثم كانت ومضة عابرة خطرت لى وأنا أتلقى محاضرة فى علم النفس فى معهد التربية عن فرويد ، فخطر لى يومها أنه بينما تبالغ المسيحية الكنسية فى فرض « الكبت » على دوافع الإنسان الفطرية ، ويبالغ فرويد فى المطالبة بالانفلات من كل قيد . . يقف الإسلام موقفًا «متوازنًا» فى نقطة الوسط ، فلا يكبت الدوافع الفطرية كما تصنع الكنيسة ، ولا يطلق الإنسان من عقاله كما يصنع فرويد . . ثم كانت تأملات عابرة كذلك فى القرآن حول هذا الخاطر السريع .

ولكن كتاب « العدالة الاجتماعية فى الإسلام » أبرز فكرة « التوازن » إبرازًا واضحًا كأصل

---

(١) يرى الشقيق أن هذا الكتاب قد فات أوانه ، ولم يعد من كتبه الصالحة للقراءة . . ولكننى هنا أتحدث عن تأثراتى الخاصة فى فترات معينة من العمر .

من أصول الإسلام العامة الشاملة ، بصورة لم تكن تخطر لى من قبل على بال !

ومن هنا عدت إلى القرآن من جديد . . أبحث فيه عن فكرة « التوازن » على خطِّى الخاص الذى أتجه إليه ، وهو خط « الدراسات النفسية » . .

عدت إلى دراسة قرآنية من نوع جديد . . دراسة لمحاولة استخلاص نظرية إسلامية عن النفس الإنسانية !

لقد كان يعز عليّ أن أسمع سخافات فرويد عن النفس الإنسانية تلقى على طلبة معهد التربية كأنها كلام منزل لا تنبغى مناقشته ! ثم يعز عليّ أنه ليس فى يدى ـ ولا فى أيدينا ـ تصور متميز ، نقدمه بدلاً من هذه السخافات ! وتمنيت لو أن إنسانًا ما ، استطاع أن يقدم يومًا هذه النظرية الإسلامية المتميزة ، التى كانت خيوطًا متفرقة منها تخطر فى ذهنى دون أن تتجمع فى شكل واضح مبلور . . ولكن الموضوع كان يشغلنى دائمًا لا أستطيع أن أكف عن التفكير فيه .

وكان كتاب « العدالة الاجتماعية » نقطة تحول فى تفكيرى . .

لقد بدأت الخيوط المتفرقة تتجمع فى ذهنى حول نواة معينة محدودة واضحة . . هى «التوازن» .

وبدأت أدرس القرآن بحثًا عن مزيد من هذه الخيوط ، وشواهد جديدة على « التوازن » الأصيل فى بنية الإسلام . .

وعلى الرغم من أننى وقتها لم أفكر أبدًا فى الكتابة ولا التأليف . . ولا أن أكون أنا الذى يقدم للناس شيئًا عن الإسلام على الإطلاق . . فإن الفكرة ظلت تشغلنى مشغلة جادة . . حتى دفعتنى دفعًا إلى تسجيلها فى كتابى الأول « الإنسان بين المادية والإسلام » .

* * *

ثم بدأت صحبتى للقرآن تأخذ منحىً آخر . .

لقد فرغت ـ أو هكذا بدا لى ـ من رسم الخطوط العريضة لنظرة الإسلام إلى النفس الإنسانية [1] . .

وبدأت أتجه وجهة جديدة . . وإن كانت بذورها متضمنة فى كتاب « الإنسان بين المادية والإسلام » .

---

(١) عدت إلى الموضوع فيما بعد بصورة أكثر تفصيلاً فى كتاب « دراسات فى النفس الإنسانية » .

إن هذا القرآن هو « منهج الحياة » لكل البشرية . . فعلينا إذن أن نستخلص هذا «المنهج» من بين ثنايا الكتاب . .

وقد تحدث الشقيق من قبل عن منهج « العدالة الاجتماعية فى الإسلام » . .

فلنبحث عن بقية « المناهج » التى تؤلف فى مجموعها « منهج الحياة » . .

وبغير ترتيب مقصود جاء « منهج التربية الإسلامية » ثم « منهج الفن الإسلامى » ثم «التطور والثبات فى حياة البشرية » الذى يمكن أن يكون « منهجًا » لجانب من الدراسة الاجتماعية ، فيما يتعلق بالجوانب الثابتة والجوانب المتغيرة من الحياة [1] . .

بغير ترتيب مقصود . . إنما كانت كل دراسة تنضج فى نفسى تأخذ طريقها إلى كتاب . .

ولكن الصحبة مع القرآن كانت متجهة كلها فى تلك الفترة إلى التنقيب عن تلك «المناهج» التى يتألف من مجموعها « منهج الحياة » .

* * *

خاطر آخر . . قد يكون نابعًا من ذات الاتجاه ولكنه أخذ صورة خاصة من التعبير . . أعادنى إلى صحبة جديدة مع الكتاب . .

ذلك هو خاطر الجاهلية التى يعيش فيها الناس اليوم . . جاهلية القرن العشرين !

إن البحث عن تفصيلات « منهج الحياة » القرآنى فى الاقتصاد والاجتماع ، والتربية وعلم النفس ، والفن والفكر . . هو ذاته الذى أدى إلى هذا الخاطر . .أن الناس يعيشون فى جاهلية « جذرية » شاملة ، أكبر وأعم من هذه التفصيلات . . سببها الأصيل هو رفض اتباع ما أنزل الله ، ورفض تسيير الحياة بمقتضى منهج الله .

وهذا ـ بالذات ـ هو الجاهلية . . ! هذا الرفض المتعمد لمنهج الله ، ولتحكيمه فى الحياة!

ومن هنا كانت تلك الجولة الجديدة فى صحبة القرآن . . جولة البحث عن « جوهر » الجاهلية ، الذى هو المقابل الحقيقى « لجوهر » الإسلام . . ثم دراسة أحوال الجاهليات التاريخية التى أفضت فى النهاية إلى جاهلية القرن العشرين . . ودراسة العلاج الوحيد لتلك الجاهلية ، وهو الرجوع إلى الإسلام . .

* * *

ثم كنا فى المعتقل على أثر ذلك فترة طالت إلى سنوات . .

---

(١) هناك بحث آخر عن « منهج الإسلام الأخلاقى » ألقيته فى صورة محاضرات على طلبة معهد الدراسات الإسلامية سنة ١٩٦٤ ـ ٦٥ ولم يأخذ بعد صورة الكتاب .

ولم يكن معنا ـ فى معظم تلك الفترة ـ إلا هذا الكتاب ! ثم لم يكن شىء أحب إلينا فى تلك الفترة من ذلك الكتاب ! نعكف عليه للتلاوة ، ونعكف عليه للحفظ ، ونعكف عليه للتأمل، ونعكف عليه للعبادة ، ونعكف عليه للعبرة ، ونعكف عليه للخلاص من ضيق القيد إلى سعة العيش فى رحاب الله . . مع كتاب الله !

ورغب إلىّ الإخوة ـ حين « استقر » بنا المقام فى المعتقل ـ أن تكون لنا دروس فى القرآن !

وقبلت المهمة مشفقًا على نفسى من جسامتها ! . . فكل دراستى فى القرآن من قبل كانت من زوايا محددة اخترتها لنفسى . . زاوية نفسية أو زاوية تربوية أو زاوية فنية . . الخ . أما القرآن ككتاب شامل ، فأمر لم أفكر فى التعرض له قط ، وما كنت فى حاجة إلى التعرض إليه فى وجود من يقوم بهذه المهمة بالفعل ويخرجها « فى ظلال القرآن » .

ولكن إلحاح الإخوة هو الذى دفعنى إلى التعرض لشىء ليس فى خط تفكيرى أن أتعرض له بحال . .

ثم كانت ـ من خلال تلك الدروس ـ جولة جديدة مع القرآن . . جديدة علىّ فعلاً ! وإن كان ينبغى أن تكون من البديهيات ! ولكن كم من البديهيات لا يراها الإنسان على حقيقتها حتى يمارسها بالفعل ، أو يتيقظ لها لسبب من الأسباب ؟!

لقد درست القرآن من قبل ، من تلك الزوايا المحددة ، فكنت أخرج بنتائج محددة فى كل مرة : أن هذا الدين المعجز ، الذى كتابه القرآن ، عملاق ضخم فى كل زاوية يدرس منه . .

عملاق ضخم فى منهجه الاقتصادى . . عملاق ضخم فى منهجه التربوى . . عملاق ضخم فى نظرته للنفس البشرية . . عملاق ضخم فى منهجه الأخلاقى . . عملاق ضخم فى نظام الأسرة . . عملاق ضخم فى منهجه السياسى . . وهكذا وهكذا فى كل مجال ، بحيث تبدو المناهج البشرية إلى جواره أقزامًا ضئيلة ، فوق أنها ممسوخة الكيان . .

هذا بدا لى واضحًا وضوحًا كاملاً من قبل ، وصار عندى من البديهيات ومن المسلّمات . .

وكانت تتمثل له فى خاطرى صورة مجسمة [وتلك عادتى مع كثير من الأفكار!]: صورة دائرة ذات مركز ومحيط . فى مركزها تقف على التوالى أقدام مجموعة من العمالقة رءوسهم واصلة إلى المحيط ، موزعة على ذلك المحيط ، كل يحتل مساحة من الدائرة ، هذا يمثل المنهج الاقتصادى ، وهذا يمثل المنهج السياسى ، وهذا يمثل المنهج الاجتماعى . . كلهم متساوون فى الحجم . كلهم متشابهون فى السمات ! بحيث لو أدرت الدائرة فى أى وضع لبدا أمامك عملاق واقف على الدوام !

ولكن شيئًا جديدًا بالمرة تبين لى فى أثناء هذه الدروس . . كان ينبغى أن يكون مسلمة من المسلمات . . ولكنه ـ بالحق ـ لم يكن كذلك فى حسّى حتى تبينت حقيقته لى . . ففوجئت بها تمامًا . . كما فوجئت من قبل مرات وأنا أصاحب هذا الكتاب !

إنه عملاق واحد مجتمع مترابط ، ملء الصورة . . ملء المساحة . . وليس هو أولئك العمالقة المتفرقين الذين وجدتهم من قبل ، كل على حدة ، كأنه كائن منفصل الحدود !

عملاق واحد شامل! لا تستطيع أن تقتطع قطعة منه فتقول : هذه سياسة . وهذه اقتصاد . وهذه تربية . وهذه فن . وهذه عقيدة . وهذه شريعة !

إن ضرورة البحث العلمى ـ أو العقلى ـ وحدها التى جعلتنا نضع تلك الفواصل ونقيم تلك الحدود بين ما هو عبادة وما هو معاملات من قبل فى الفقه الإسلامى ، ثم بين ما هو سياسة ، وما هو اقتصاد ، وما هو اجتماع . . . الخ ، فى تفكيرنا الحديث !

ولا شيء من هذه الفواصل موجود فى الحقيقة !

إنما هو كتاب واحد شامل ! تتداخل فيه هذه وتلك تداخلاً كاملاً لا يمكن فصل بعضه عن بعض ، كما لا يمكن فصل جزء من الجسم الحيّ عن جزء إلا لضرورة البحث العلمى فحسب !

صحيح أنك ـ فى الجسم ـ تقول : هذه يد . وهذه ذراع . وهذه عين ، وهذه سن . . ولكنها متصلة اتصالاً وثيقًا رغم تميزها الظاهر . . بحيث لا يمكن أن تقطع إحداها وحدها وتقول : هذه يد ، وهذه ذراع ، وهذه عين ، وهذه سن . . إلا أن تنتزعها من الجسم الحيّ ، وعندئذ تموت !

هناك وشائج تجمّع الكل . . هناك دم يسرى فى الكل . . هناك أعصاب تربط الكل وتعطى كل جزء إحساسه بالجزء الآخر .

القرآن كذلك ! ولله المثل الأعلى .

كتاب واحد شامل !

صحيح أنك تقول : هذه آية من آيات الأحكام . هذه آية تنظم روابط الأسرة . هذه آية تتحدث عن نعم الله على الإنسان . هذه آية تلفت الحس إلى تدبر آيات الله فى الكون . .

وأنت فى كل ذلك صادق ولا شك . .

ولكن أقرأ القرآن جيدًا ، وتدبره كما تدبرناه فى صحبة هذه الدروس . . لن تجد شيئًا من

ذلك كله منفصلاً عن شيء ، بحيث تستطيع ـ إلا في ضرورة البحث العلمي ـ أن تفصله وحده كأنه كيان مستقل !

هناك وشائج تجمّع الكل . . هناك رباط يربط الكل . . هناك سياق موحد يشمل الكل . .

وذلك هو القرآن!

كم كان ذلك جديدًا ـ في حسي على الأقل ـ بينما ينبغي أن يكون بديهيًا في حس كل دارس لهذا الكتاب !

وكم فوجئت ـ وأنا في تلك الدروس ـ أن صحبتي الطويلة لهذا الكتاب منذ الطفولة تتجمّع كلها لتعطي الصورة الموحدة الشاملة !

حتى وقفات الطفولة . . حتى سبحات الصبا . . حتى لمسات الفن . . حتى أبحاث العقل المجرد . . حتى الدراسات « الإنسانية » من اقتصاد واجتماع وعلم نفس وتربية وفن .

هذه كلها يمكن أن تَرِدَ الآن . . ولكنها ترد مجتمعة متساوقة متواكبة لتأخذ مكانها في الصورة الموحدة الشاملة ، لا أجزاءً ولا تفاريق . وعندئذ تكون دلالتها أوضح وأعمق وأدق !

* * *

تلك قصتي الطويلة مع « الكتاب » . .

والصفحات التالية هي « الخلاصة » من هذه القصة الطويلة . .

أقدمها . . على تردد !

فمازلت بعد على غير اقتناع كامل بأن فيها غناءً للقارئ . . أي غناء !

ومازلت أرى أنه حسب من شاء أن يعيش « في ظلال القرآن » . . فيجد فيه غناءً عني ، وعن مثل هذا الكتاب !

وما قصدت بهذه الصفحات على أي حال أكثر من أن تكون « مفاتيح » . . قد تعين قارئًا من القراء على تدبر القرآن .

« وما توفيقي إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب » .

محمد قطب

القرآن
مكي ومدني

من المعروف بطبيعة الحال أن هناك سورًا مكية وسورًا مدنية فى القرآن ، بحسب مكان نزولها فى مكة أو المدينة .

ولكن هناك ظاهرة تلفت نظرنا باديء ذى بدء ، هى وجود آيات مدنية فى سور مكية ، وآيات مكية فى سور مدنية . أى أن هناك آيات نزلت فى المدينة ولكنها ألحقت بسور مكية ، وآيات نزلت بمكة ولكنها ألحقت بسور مدنية [1] .

والذى يلفت نظرنا فى هذه الظاهرة أن مكان نزول الآية لم يكن هو الذى حدد موضعها فى المصحف ، ولا زمان نزولها كذلك ! فقد تنزل آية فى المدينة ثم تلحق بسورة مكية قبل ذلك بعشر سنوات أو أكثر ، كالآية الأخيرة من سورة المزمل المكية :

« إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه ، وطائفة من الذين معك ، والله يقدر الليل والنهار ، علم أن لن تحصوه فتاب عليكم ، فاقرءوا ما تيسر من القرآن . علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله ، وآخرون يقاتلون فى سبيل الله ، فاقرءوا ما تيسر منه وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضًا حسنًا . وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرًا وأعظم أجرًا ، واستغفروا الله إن الله غفور رحيم » [المزمل : ٢٠] .

---

(١) هناك آية فى سورة القصص ـ المكية ـ نزلت بالجحفة فى أثناء الهجرة : « إن الذى فرض عليك القرآن لرادّك إلى معاد . » [القصص : ٨٥] وآية فى سورة محمد ـ المدنية ـ نزلت فى الطريق فى أثناء الهجرة : «وكأين من قرية هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم » [محمد : ١٣] وآية فى سورة البقرة نزلت بمنى فى حجة الوداع : « واتقوا يومًا ترجعون فيه إلى الله ، ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » [البقرة : ٢٨١] وجزء من آية فى سورة المائدة نزل بعرفات فى حجة الوداع : «اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون . اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينًا [المائدة : ٣] .

وقد تنزل آيات فى مكة ولكنها تلحق بسورة مدنية نزلت بعد ذلك كهذه الآيات من سورة الأنفال :

« وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين . وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا ، لو نشاء لقلنا مثل هذا ، إن هذا إلا أساطير الأولين . وإذ قالوا : اللهم إن كان هذا هوالحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم . وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون . وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه . إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون . وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاءً وتصدية . فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون . إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ، فسينفقونها، ثم تكون عليهم حسرة ، ثم يغلبون ، والذين كفروا إلى جهنم يحشرون » [الأنفال : ٣٠ـ٣٦] .

هناك شيء آخر إذن غير مكان نزول الآية وزمان نزولها هوالذى حدد موضعها فى المصحف . .

وأول ما يخطر فى البال إزاء هذه الظاهرة أن هناك وحدة موضوعية لكل سورة من سور القرآن . وإلا فلو كان القرآن مختلط الموضوعات بلا رابطة كما يقول الذين لا يتدبرون القرآن ولا يفهمونه من المستشرقين وتلامذتهم من « المسلمين ! » ما كان هناك معنى لإلحاق آية مدنية بسورة مكية ، ولا آية مكية بسورة مدنية ؛ ولكان الأولى أن توضع حيث نزلت ، فى أية سورة متجانسة معها فى الزمان والمكان !

بل إن وضعها فى سورة غير متحدة معها فى الزمان والمكان فى موضع معين منها بالذات لهو أشد دلالة ! فقد كان جبريل عليه السلام يتنزل بالوحى ثم يخبر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن مكان الآية أو الآيات هو فى سورة كذا ، بعد آية كذا . . فهى إذن توضع فى مكانها المقرر لها فى اللوح المحفوظ ، بضرف النظر عن مناسبة نزولها من حيث الزمان والمكان . . وهى من جهة أخرى لابد أن تكون ذات صلة موضوعية بالسورة التى ألحقت بها وإن كانت لم تتنزل معها !

ولقد عنى صاحب « الظلال » بهذه الوحدة الموضوعية فى كل سورة بذاتها ، فبيّنها بما لا يحتاج منا إلى مزيد ، ولكنّا فقط نشير إليها هنا ونسجلها ، ثم نعود إليها إن شاء الله مرة أخرى ونحن نبسط بعض النماذج من السور المكية والمدنية لنؤكدها ، وخاصة فى السور

الطوال : البقرة وآل عمران والنساء التى قد تبدو فى حس الذين لا يتدبرون القرآن خليطًا من الموضوعات لا يربط بينها رباط !

* * *

ظاهرة أخرى لابدأن تلفت نظر القارئ لكتاب الله ، هى الاختلاف الواضح بين السور المكية والسور المدنية فى طريقة التعبير وبناء الآيات . فالسور المكية ـ فى الغالب ـ قصيرة الآيات سريعة الحركة ، سريعة النبض ، مثيرة للوجدان . والسور المدنية ـ فى الغالب ـ طويلة الآيات ، متأنية الحركة ، أقرب إلى إثارة التأمل الفكرى منها إلى إثارة الوجدان . ذلك هو الغالب ، وإن كانت هناك فى الحقيقة استثناءات غير قليلة لهذه القاعدة العامة . فإنك لا تستطيع ـ مثلاً ـ أن تميز سورة الأحزاب عن السور المكية إلا بموضوعها ، لا بجرسها ، ولا بطول الآيات فيها. كما أنك لا تستطيع تمييز سورة الزلزلة عن السور المكية لا بموضوعها ولا بجرسها جميعًا !

وقد قال الذين لا يتدبرون القرآن ولا يفهمونه كلامًا فى هذه الظاهرة كذلك !

والأمر واضح لا غرابة فيه . فحين يكون الموضوع الرئيسى فى السور المكية هو العقيدة ـ بتفصيلاتها التى سنتكلم عنها فيما بعد ـ يكون الأسلوب المناسب هوالحركة السريعة والنبض السريع ومخاطبة الوجدان ، مكمن العقيدة ، وحين يكون الموضوع الرئيسى فى السور المدنية هو التشريعات والتنظيمات ، وبناء المجتمع المسلم وإقامة الدولة المسلمة وتثبيت أركانها إزاء الكيد الذى يكيده لها أعداؤها ، يكون الأسلوب المناسب هو الحركة المستأنية ، والمخاطبة العقلية التى تدع المجال للتدبر والتفكير . ومع ذلك فهو ليس ذلك الأسلوب العقلى الجاف الذى تستخدمه البحوث العلمية ، ولا هو التجريد الذهنى البحت الذى تستخدمه الفلسفة. إنما هو نسق فريد من التعبير لا مثيل له فيما يكتب البشر أو يتحدثون . لا يفقد النبض الحيّ ولا الجرس الموسيقى حتى فى آيات التشريع البحت ، ولا يخاطب عقل الإنسان وحده دون بقية كيانه ، كما سنرى فى شيء من التفصيل عند عرض نماذج من السور المدنية .

* * *

أما الظاهرة التى تهمنا أكثر من غيرها فى هذا التمهيد القصير فهى تلك التى أشرنا إليها فى الفقرة السابقة : أن السور المكية مشغولة كلها بالعقيدة ـ ولا شيء غير العقيدة ـ خلال ثلاثة عشر عامًا من الزمان . وأن التشريعات والتنظيمات لم يتنزل منها شيء فى مكة إلا توجيهات عامة. بينما السور المدنية هى المشغولة بالتشريعات والتنظيمات ، وإن كانت لا

تخلو بحال من الأحوال من حديث العقيدة الذى لا ينقطع الحديث عنه فى كتاب الله من أوله إلى منتهاه !

وفى الفصول القادمة نتحدث عن السور المكية والسور المدنية : ما موضوعاتها التفصيلية؟ وكيف يتناولها القرآن ؟

ثم نعرض نماذج من هذه وتلك تبين الموضوعات والطريقة على السواء .

السُّوَرُ المكِّيَّة

الموضوع الرئيسى فى السور المكية كله هوالعقيدة ، هو « لا إلـه إلا الله » بكل موجباتها فى الآفاق والأنفس ، وكل تفصيلاتها وتفريعاتها ، وكل مقتضياتها فى واقع النفس وواقع الحياة .

بل نستطيع أن نقول فى الحقيقة إن العقيدة هى الموضوع الرئيسى فى القرآن كله ، مكيّة ومدنيّة على السواء . ولكنها فى السور المكية تستغرق المساحة كلها ، وتستوعب الحديث كله، بينما هى فى السور المدنية أشبه بالتيار الجارى تستنبت على شاطئيه الحياة من كل جانب، لتترعرع وتزدهر بعد أن تشبعت بها النفس ، فتجىء التنظيمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والروحية والفكرية التى تنظم حياة المجتمع المسلم فتشغل معظم المساحة ، ولكنها تجىء مرتبطة بالعقيدة، مستمدة منها ، نابتة فى ظلها ، آوية فى النهاية لها .

ولقد نحسب لأول وهلة أن هذا الاهتمام البالغ بموضوع العقيدة فى السور المكية ، والتركيز الشديد عليها بحيث تشغل المساحة كلها ، إنما كان لأن العرب فى الجاهلية لم يكونوا يؤمنون بالله الواحد ، فاقتضى الأمر أن يخاطبوا فى شأنها ، ويتكرر الخطاب إليهم حتى يصل إلى هذا الحد !

ولكن نظرة سريعة إلى السور المدنية ترينا غير ذلك !

ففى المدينة كان المجتمع المسلم قد قام ، وقامت الدولة المسلمة كذلك . وكان قد تربى على العقيدة الصحيحة جيل كامل ، بعضه تربى فى مكة من قبل ، خلال ثلاثة عشر عامًا من الدعوة ، وبعضه تربى فى المدينة قبل الهجرة وبعدها . بل كان قد تربى لهذه العقيدة جنود « يقاتلون فى سبيل الله فَيَقْتُلون ويُقتلون » . . وليس بعد تقديم النفس فداءً لهذه العقيدة والموت فى سبيلها دليل على مدى تأصلها فى نفوس أصحابها ، وصدقهم فى اعتناقها، والتجرد لله فيها. ومع ذلك فقد كان هؤلاء المؤمنون المجاهدون أنفسهم يخاطبون فى أمر العقيدة فى العهد المدنى من أول سورة إلى آخر سورة ! وذلك دليل واضح على أن هذا الاهتمام البالغ بأمر العقيدة فى القرآن لم يكن سببه إنكار العرب فى جاهليتهم ، إنما لابد أن يكون سببه الأهمية الخاصة للموضوع ذاته ، حتى وإن كان المخاطبون به مؤمنين .

كذلك نستدل من تكرر الحديث عن العقيدة فى السور المدنية للمؤمنين لا للذين لم يؤمنوا بعد[1]، أن حديث العقيدة ليس درسًا يُعطَى ثم يُمضَى عنه إلى غيره ! إنما هو درس يُعطَى على الدوام ثم يُمضَى معه إلى غيره ! بحيث لا ينقطع الحديث عنه فى يوم من الأيام!

والله أعلم بخلقه : « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ؟ » [2]. ولو كان يعلم سبحانه أن درسًا عابرًا فى العقيدة يكفى ، أو جملة دروس وتنتهى ، لما ظل القرآن يتحدث عنها فى السور المدنية بلا انقطاع حتى آخر آية نزلت من القرآن ، وهى قوله تعالى : «واتقوا يومًا ترجعون فيه إلى الله ، ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » [3]. إنما يعلم سبحانه أنه لابد من التذكير الدائم بالعقيدة حتى للمؤمنين : « وذكّر فإن الذكرى تنفع المؤمنين » [4].

ولقد نحسب لأول وهلة كذلك أن القرآن يعطى هذه العناية البالغة للعقيدة ـ سواء فى العهد المكى أو المدنى ـ لأنه كتاب دين !

وهذا من جهة حق لا شك فيه !

ولكن هذا الكتاب هو المنزل من عند الله لتقويم الحياة البشرية وإقامة الحق والعدل فى الأرض : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط . . »[5].

فإذا كان الكتاب الذى يحوى المنهج الربانى لإصلاح الحياة البشرية وإقامتها بالقسط يخصص هذا الحيّز الواسع للحديث عن العقيدة ، فلابد إذن أن تكون العقيدة هى محور ذلك الإصلاح كله ، وأن يكون اهتمام القرآن بها آتيًا من أنها هى الوسيلة للغاية المطلوبة . ولو كانت هناك وسيلة أخرى غيرها أو مثلها ـ تؤدى إلى الإصلاح ، كالتنظيم الاقتصادى أو السياسى أو الاجتماعى . . الخ لأولاها القرآن هذه العناية . فإن الله سبحانه وتعالى وهو ينزل على عباده منهج إصلاحهم لن يضنّ عليهم بالوسيلة المثلى لذلك الإصلاح . ولقد حدثهم بالفعل فى كتابه المنزل عن التنظيمات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية . . فهى ليست موضوعًا بعيدًا عن القرآن ولا غير وارد فيه . وإنما أعطى القرآن الأولوية العظمى لموضوع

---

(١) من أوضح الأمثلة على ذلك قوله تعالى فى سورة النساء : « يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله ، والكتاب الذى نزل على رسوله . . » [آية ١٣٦] وقوله تعالى فى سورة الحديد : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته . . » [آية ٢٨] .

(٢) سورة الملك : ١٤ .

(٣) سورة البقرة : ٢٨١ .

(٤) سورة الذاريات : ٥٥ .

(٥) سورة الحديد : ٢٥ .

العقيدة قبل كل شيء آخر لأن الله يعلم ـ سبحانه ـ أن هذا وحده هو السبيل الحقيقى لإصلاح البشرية ، وكل ابتداء بغيره ، أو مُضِىّ بدونه ، عمل باطل لا يؤدى إلى شىء !

* * *

هناك أسئلة تلح على الفطرة ـ بوعى أو بغير وعى ـ لا تستطيع الفطرة أن تتخلص من ضغطها عليها و إلحاحها . .

من خالق هذا الكون ؟

من مدبر الكون ومدبر الأحداث ؟

من أين جئنا ؟

إلى أين نذهب بعد الموت ؟

لأى غاية نعيش ؟

وهذه الأسئلة ـ قبل التنظيم الاقتصادى أو السياسى أو الاجتماعى ـ هى التى تحدد مسار الإنسان فى الأرض ، وصورة وجوده عليها ! كما تحدد له الإجابة على سؤال أخير من تلك الأسئلة التى تلح على الفطرة ، وهو : على أى صورة وعلى أى منهج نعيش ؟

ولقد زعمت المادية الجدلية والتفسير المادى للتاريخ أن الذى يشكل وجود الإنسان على الأرض ويعطيه صورته هو الوضع الاقتصادى أو الوضع المادى !

« فى الانتاج الاجتماعى الذى يزاوله الناس تراهم يقيمون علاقات محدودة لا غنى لهم عنها ، وهى مستقلة عن إرادتهم . . فأسلوب الإنتاج فى الحياة المادية هو الذى يحدد صورة العمليات الاجتماعية والسياسية والمعنوية فى الحياة . ليس شعور الناس هو الذى يعين وجودهم ، بل إن وجودهم هو الذى يعين مشاعرهم » [كارل ماركس] .

« تبدأ النظرية المادية من المبدأ الآتى : وهو أن الإنتاج وما يصاحبه من تبادل المنتجات هو الأساس الذى يقوم عليه كل نظام اجتماعى . فحسب هذه النظرية نجد أن الأسباب النهائية لكافة التغيرات أو التحولات الأساسية لا يجوز البحث عنها فى عقول الناس ، أو فى سعيهم وراء الحق والعدل الأزليين ، وإنما فى التغيرات التى تطرأ على أسلوب الإنتاج والتبادل» [فردريك إنجلز] .

والمادية الجدلية تغالط نفسها أو تغالط الناس بهذه المقالة وتلك ، وتهرب من الواقع حين تزعم أنها « فيزيقية » بحتة ، أى مادية خالصة ليس لها علاقة « بما وراء الطبيعة » أو «الميتافيزيقا » كما يسمونها فى اصطلاحاتهم !

إنهم ـ وهم يضعون نظريتهم لتفسير الحياة وتفسير التاريخ ـ قد أجابوا بالفعل على تلك

الأسئلة الميتافيزيقية » التى تلح على الفطرة البشرية ولا تستطيع الفطرة أن تتخلص من ضغطها وإلحاحها !

أجابوا بقولهم : « لا إلـه . والكون مادة » !

وأجابوا بقولهم : إن الحتمية المادية والحتمية الاقتصادية والحتمية التاريخية هى التى تدبر أمور الكون وتدبر الأحداث .

وأجابوا بقولهم : إن الإنسان نتاج المادة ، وإليها يعود !

وأجابوا بقولهم : إننا نعيش لنؤدى دورنا المرسوم بحسب وضعنا المادى والاقتصادى ، أى دورنا الذى تفرضه علينا « الحتميات » المادية والاقتصادية والتاريخية !

وبصرف النظر ـ مؤقتًا ـ عما فى هذه الإجابات كلها من ضلالة وانحراف ، فإن الذى يعنينا الآن منها أنها ـ رضيت أم أبت تقدم « تصورًا » معينًا للكون والحياة والإنسان وعلاقاتها كلها «بالخالق » [1] وعلاقات بعضها ببعض ، كما تقدم إجابات للأسئلة التى تلح على الفطرة ـ بوعى أو غير وعى ـ وهذا كله قبل أن تقدم الصورة التطبيقية والحل العملى الذى تظن أنه يصلح الحياة البشرية ويقومها !

ومهما حاولت المادية الجدلية أن تزعم أنها ضد « الميتافيزيقا » ولا علاقة لها بها على الإطلاق لأنها مادية بحتة أو « علمية ! » بحتة ، فستظل دعواها قائمة على غير أساس واقعى ، مادامت « فلسفتها » تتعرض للإجابة على هذه الأسئلة بالذات ، وتحاول أن تعطى « تفسيرًا » شاملاً للحياة ، مبنيًا على « تصور » شامل لعلاقاتها بعضها ببعض .

وكون هذه الإجابات مادية بحتة ـ كما هو ظاهر ـ لا ينفى أنها فى أصلها إجابات على أسئلة غير مادية ، وأنها « تَصَوُّرٌ » معنوى يسبق التطبيق الواقعى ويضع له القواعد والمفسرات!

وهذا هو الجوهر الحقيقى للموضوع .

إن الإنسان ـ بحكم تكوينه ، وبوعى منه أو بغير وعى ـ لابد أن تكون له عقيدة !

وهذه العقيدة ، التى هى تَصَوُّرٌ شامل للكون والإنسان ، وعلاقاتها بالخالق ، وعلاقاتها بعضها ببعض ، هى الأساس الذى تنبنى عليه الصورة التى يكون عليها وجود الإنسان فى الأرض ، سواء وجوده المادى أو وجوده المعنوى ، وسواء وجوده السياسى أو الاقتصادى أو الاجتماعى . .

---

(١) هم ينكرون « الإلـه » بمعناه الدينى الذى نعرفه ، ولكنهم يقولون إن « الطبيعة » هى التى خلقت الكون ، وإن للطبيعة قوانين حتمية هى التى تدير الكون !

وليس من الضرورى أن يكون كل إنسان واعيًا لهذا التصور الشامل أو أصيلاً فيه . فقد يعيشه على غير وعى كامل منه ، وقد يكون فيه مقلدًا للآخرين وخاصة أصحاب السلطان فى المجتمع ، الذى يشكلون فى العادة أنماط التفكير والسلوك فى مجتمعاتهم ، ثم تتبعهم «الجماهير» مختارة ، أو مقهورة على التقليد !

ولكن هذا كله لا يغيّر الحقيقة الواقعة ، وهى أن هذه العقيدة أو هذا التصورالشامل هو الذى يضع دستور الحياة ويشكل أنماطها وقوالبها ، وهو الذى يرسم للإنسان أفكاره ومشاعره وأنماط سلوكه ، ويحدد له علاقته بالخالق ، وعلاقته بالكون والحياة والإنسان .

* * *

ليس اهتمام القرآن بالعقيدة إذن ناشئًا من إنكار العرب فى الجاهلية ، ولا ناشئًا من أنه كتاب « دين » !

إنما سببه أن الله اللطيف الخبير الذى يعلم حقيقة النفس البشرية وتكوينها ، يعلم كذلك أن العقيدة هى محور ارتكاز الإنسان كله وموجِّه ألوان نشاطه . وأن نوع الحياة التى يحياها الإنسان فى الأرض ـ فضلاً عن مصيره فى الآخرة ـ مرهون كله بنوع العقيدة التى يعتقدها ويسير ـ من ثم ـ بمقتضاها . مرهون بالإجابة على تلك الأسئلة التى تلح على الفطرة وتتطلب إجابات محددة عليها :

من خالق هذا الكون ؟

من مدبر الكون ومدبر الأحداث ؟

من أين جئنا ؟

إلى أين نذهب بعد الموت ؟

لأى غاية نعيش ؟

ومن حصيلة ذلك كله تجيء الإجابة على السؤال الأخير : على أى صورة وعلى أى منهج نعيش ؟

فإذا أَوْلَى القرآنُ العقيدةَ هذا الاهتمام كله فهذا هو الأمر الطبيعى ، وهذا هو المتوقع من كتاب يرسم للناس منهج الحياة .

* * *

يهتم القرآن اهتمامًا بالغًا بأمر تصحيح العقيدة . .

وإلا فإن العقيدة بمعناها المطلق ، أى الإيمان بوجود خالق هذا الكون ، ثم وجود مجموعة من التصورات فى أذهان الناس حول ذلك الخالق تطبع بطابعها واقع الحياة فى الأرض . . هذا كله لا يحتاج إلى كتاب منزل ولا إلى رسول !

وما نزل القرآن ليقول للناس إن هناك إلــهًا ، فإنهم يعرفون ذلك بغير قرآن ! : « ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله ! »[1] بل إنهم ليعرفون معلومات معينة عن ذلك الإله : « قل : لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله ! قل : أفلا تذكّرون ؟! قل : من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم ؟ سيقولون لله ! قل : أفلا تتقون ؟! قل : من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله ! قل : فأنّى تسحرون ؟! »[2] .

بل ما نزل القرآن ـ ولا أى كتاب سابق ـ ليقول للناس إن هناك إلهًا فاعبدوه ! فهم يعرفون ذلك ويقومون بالعبادة من ذات أنفسهم ، على صورة من الصور يصنعونها لأنفسهم !

إنما نزلت الكتب السماوية كلها وأرسل الرسل كلهم ـ بما فيهم خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم ـ ليحدثوا الناس عن العقيدة الصحيحة . ليقولوا لهم : لا إله إلا الله . اعبدوا الله ما لكم من إله غيره . .

ولم تكن مشكلة البشرية ـ من أول التاريخ إلى آخر التاريخ ـ أنهم لا يعرفون وجود الله ولا يعبدونه بصورة من الصور ، إنما مشكلتهم أنهم لا يعرفونه المعرفة الحقة ، ومن ثم لا يعبدونه كما تنبغى له العبادة سبحانه : « وما قدروا الله حق قدره »[3] « كلا ! لما يقض ما أمره ! »[4] .

إن الفطرة البشرية تتجه إلى الله من تلقاء ذاتها بغير كتاب منزل ولا رسول . .

فلقد أودع الله فيها هذا التوجه إلى الخالق بطريقة لا نعلمها : « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى ! شهدنا ! »[5] .

كيف أشهدهم ؟ لا نعرف ! ولكنا نرى فى عالم الواقع أن البشر يتجهون توجهًا فطريًا إلى الخالق ، ولو لم يدلهم عليه أحد . ويتوجهون ـ فطرة ـ إلى عبادته ، ولو لم يأمرهم بذلك أحد أو يوجههم إليه . ولكنهم كثيرًا ما يضلون فى تصورهم للخالق سبحانه ، فيتصورونه على غير حقيقته ، ويتصورون وجود آلهه أخرى معه ، ثم يعبدونه على هوى أنفسهم بغير ماتعبّدهم

---

(١) سورة لقمان : ٢٥ . (٢) سورة المؤمنون : ٨٤ ـ ٨٩ . (٣) سورة الزمر : ٦٧ .
(٤) سورة عبس : ٢٣ . (٥) سورة الأعراف : ١٧٢ .

بـه، ويشركون معه فى العبادة تلك الآلهة المتوهمة ليقربوهم إليه زلفى كما يزعمون : « والذين اتخذوا من دونه أولياء : ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » [1] أويعبدون تلك الآلهة المزعومة وحدها ـ فى الواقع ـ من دون الله .

وعندئذ ينزل الله الكتاب ويرسل الرسول ليصحح للناس عقيدتهم لا لينشئها ـ فهى موجودة بأصل الفطرة ـ وليقول لهم : لا إله إلا الله . اعبدوا الله ما لكم من إله غيره .

ولقد يخيل إلينا أحيانًا أن الجاهلية المعاصرة استثناء من هذه القاعدة ، لأن فيها شعوبًا بأسرها لا تعرف الله البتة ، ولا تعبده البتة . بل تدرس الإلحاد فى المدارس ، وتخرّج ملحدين لا يعرفون الله ولا يؤمنون بوجوده .

كما أن بعض المفسرين قالوا عن « الدهريين » الذين يحكى القرآن قولهم : « وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر . . » [2] إن هؤلاء القوم ينكرون وجود الله ويؤمنون ـ بدلاً منه ـ بالدهر .

فأما بالنسبة لهذه الآية فليس فيها ما يقطع بأنهم حتمًا ينكرون وجود الله ! إن الآية تقرر فقط أنهم ينسبون الإماتة إلى الدهر بدلاً من الله ، وأنهم ينكرون البعث . وليس هناك على الإطلاق ما يمنع من أن يكونوا مؤمنين بوجود الله ولكنهم ينفون صلته سبحانه بما يحدث لهم من حياة وموت ، كما ينفون قدرته على البعث ، وينفون البعث جملة لأن الدهر ـ الذى ينسبون إليه الأمر ـ يُهْلِكُ فقط ، وليست له قدرة على الإحياء !

أما الشيوعيون فليسوا ـ برغم إلحادهم ـ استثناء من القاعدة ! إنما الإلحاد مفروض عليهم فرضًا بالحديد والنار كالنظام الشيوعى ذاته ! ولو خلّى بينهم وبين أنفسهم لكان ضلالهم فى أمر العقيدة كضلال بقية الضالين من البشرية ! يعرفون الله ولكن على غير حقيقته ، ويعبدونه ولكن على هوى أنفسهم !

وإن إصرار الدولة على تدريس الإلحاد فى المدارس لهو ذاته دليل على خشيتهم من العقيدة المفطورة فى الفطرة وإن ضلت ـ وكثيرًا ما تضل ! ـ فهم يلاحقونها دائمًا بالتوجيه المضاد فى برامج الدراسة ، خشية أن تظهر تلقائيا فتفسد عليهم ـ برغم كونها ضالة ـ أصلاً هامًا من أصول مذهبهم الشرير ، المخطط لإفساد البشرية !

وتكفى هذه الحادثة لتثبت أن الشيوعيين ليسوا استثناء من القاعدة :

---

(١) سورة الزمـر : ٣ . (٢) سورة الجاثية : ٢٤ .

فجاجارين رائد الفضاء الأول شاب ربّى فى الشيوعية والإلحاد منذ مولده إلى يوم انطلاقه إلى الفضاء فى داخل الصاروخ . ومع ذلك فقد اهتزت فطرته حين نظر إلى الكون من خلال الصاروخ ، لأنه رأى صورة لم يشهدها من قبل ، وكان أول تصريح له حين هبط إلى الأرض : « حين صعدت إلى الفضاء أخذتنى روعة الكون فمضيت أبحث عن الله ! » .

تلك هى استجابة الفطرة التلقائية إزاء الكون الهائل الذى خلقه الله . لم تستطع كل الشيوعية التى تفرضها الدولة ، وكل الإلحاد الذى تبثه فى الدروس ، أن تحول دون انطلاقها حين هزتها روعة الكون !

ومن الطريف أن « الدولة » غضبت من هذا التصريح ، لأنه يهدم كل ما أنشأته خلال خمسين عامًا من الإلحاد ! لذلك أمرت « جاجارين » بتصحيح ذلك التصريح الخطير ، فأضاف إليه فى القراءة الثانية : « . . أخذتنى روعة الكون فمضيت أبحث عن الله فلم أجده ! » ونشرت وكالات الأنباء هاتين القراءتين المختلفتين للتصريح الواحد . . بغير تعليق!

* * *

نعم . .! تحتاج الفطرة إلى رسول ولا كتاب منزل ليدلها على وجود الله ، أو يدعوها لعبادة الله . .

ولكنها فى حاجة ماسة للرسول والكتاب المنزل ، لتعرف الله على حقيقته ، وتقدره حق قدره ، وتعبده العبادة الحقة . وتلك كانت مهمة الرسل جميعًا إلى أقوامهم ، عليهم صلوات الله وسلامه ، كما كانت تلك مهمة الكتب المنزلة جميعًا . . حتى جاء الرسول الأخير ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ليخاطب البشرية كافة ، وجاء الكتاب الأخير مصدقًا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنًا عليه .

جاء ـ قبل كل شيء ـ ليعرفهم بالله . .

أو لم يكونوا يعرفونه ؟!

بلى ! ولكنها معرفة ناقصة من ناحية . ومعرفة ذهنية باردة من ناحية أخرى ، لا ينبض بها القلب ، ولا تتحول إلى وجدان حيّ ولا سلوك عملى فى واقع الأرض .

ومما يلفت النظر كثيرًا أن القرآن سجل على العرب معرفتهم بالله : « ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله » (1) ثم سماهم ـ مع ذلك ـ « الذين لا يعلمون » ! : «كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم » (2).

---

(١) سورة لقمان : ٢٥ .
(٢) سورة البقرة : ١١٣ .

فلم يعتبر معرفتهم السابقة علمًا . ولم يجعل هذه المعرفة السابقة رصيدًا لهم يضيف إليه بيانات جديدة عن الله . إنما محاها محوًا ، واعتبرها جهلاً وجهالة ، وبدأ معهم من نقطة الصفر ، باعتبار أنهم « لا يعلمون » !

بل الأعجب من ذلك أنه حين بدأ معهم من نقطة الصفر ، بدأ بذات « المعلومات » و «البيانات » التى كانت لديهم بالفعل !

« اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق »[1] .

وكون الله هوالخالق للإنسان كان معروفًا لديهم ، وسجله القرآن عليهم : « ولئن سألتهم من **خلقهم** ليقولن الله »[2] !

وكون الإنسان مخلوقًا من علق كان معروفًا لهم كذلك ، وسجله القرآن عليهم : « كلا إنا خلقناهم **مما يعلمون** »[3].

فإلى هنا لم تكن « البيانات » و « المعلومات » جديدة . . وإن كانت قد جدّت فيها بعد أشياء لم يكونوا يعلمونها أو كانوا منكرين لها . . إنما المهم أنه عند الابتداء من نقطة الصفر، بدأ بالمعلومات الموجودة لديهم بالفعل . . فما الفرق إذن بين تلك المعرفة السابقة التى محاها محوًا واعتبرها غير موجودة أصلاً ، وسماهم بها « الذين لا يعلمون » وبين هذه المعرفة ذاتها تقدم من جديد ؟!

الفرق ليس فى « المعلومات » ذاتها ، ولكنه فى **طريقة المعرفة** . .

هنالك كانت معلوماتٍ باردة ميتة لأنها قائمة فى محيط الذهن وحده . وهنا يراد لها أن تكون معلومات حية نابضة ، لأنها لا تستكنّ فى الذهن ، إنها تنتقل إلى القلب ، فتنبض فى وجدان حيّ ، فتتحول إلى سلوك إيمانى .

« اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم . كلا ! إن الإنسان ليطغى ، أن رآه استغنى . إن إلى ربك الرجعى . . . » .

هنا لا يجيء خلق الإنسان من علق مجرد « معلومات » . . ولا كذلك تعليم الله للإنسان ما لم يعلم . . إنما يجيئان لتحريك وجدان الإنسان نحو الله الخالق واهب العلم، بما ينبغى من الشكر على نعمة الخلق ، ونعمة التعليم . . وربما كانت الثانية أفعل ، لأن الإنسان يجد نفسه وقد خلق بالفعل ، فينسى ! ينسى أن الله هو الذى خلقه وأنه لم يخلق هكذا تلقائيًا

---

(١) سورة العلق : ١ ـ ٢ . (٢) سورة الزخرف : ٨٧ . (٣) سورة المعارج : ٣٩ .

بغير خالق. ولكن التعليم يتم والإنسان مدرك ، وينتقل الإنسان أمام عين نفسه من حالة الجهل إلى حالة العلم ، فهو حرى أن يحس بالنعمة ويقدرها . . وهذا الإيحاء الذى تعطيه الآيات الأولى من السورة ، وهو تحريك الوجدان لشكر الله ، يتبين واضحًا حين نصطدم بحالة ذلك الإنسان المنعم عليه بتلك النعم ، لا فى حالة شكر كما ينبغى ، بل فى حالة طغيان : « كلا ! إن الإنسان ليطغى ! » ولماذا يطغى ؟ لأن الله أعطاه!! أى أن ذات السبب الذى كان ينبغى أن يؤدى إلى الإيمان والشكر ، صار يؤدى إلى الطغيان والكفر ! وهذه المفارقة بين الحالة القائمة بالفعل ، والحالة التى كان ينبغى أن تكون ، هى التى تحرك الوجدان للإحساس بقيمة النعمة الربانية وواجب الإنسان السليم الفطرة إزاها . . ثم يجيء ختام هذا المقطع الأول من السورة ليحرك الوجدان حركة أخرى ، بالإضافة إلى السابقة : «إن إلى ربك الرجعى » فيبدو هذا الطاغية الصغير ، المنتفش فى الأرض بغير الحق وقد قُطِعَ عليه الطريق فجأة ! إن يدًا جبارة قد قطعت طريقه وهو سائر منتفش متعالٍ على الخلق ، ثم أمرته بالرجوع ! والرجوع إلى أين ؟ إلى الله . . إلى « ربك » الذى منحك ذلك كله فكفرت به وطغيت ! وهنا يزول عنه انتفاشُه الباطلُ ، وطغيانه المفتون ، فيأخذ مكانه الحق : ذليلاً أمام الرب الذى خلق وأعطى ، فما قدر حق قدره .

هكذا يتبين لنا كيف انتقلت تلك « المعلومات » من حالتها الآسنة الميتة الباردة ، لتصبح نبضًا حيًا فى القلب ، لتتحول من ثم إلى سلوك واقعى! ويتبين لنا كذلك الفرق بين معرفة الرجل الجاهلى بأن الله موجود وخالق ، والتى قال الله عنها : «ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله » [1] وبين معرفة الرجل المؤمن بهذه الحقيقة ذاتها ، فندرك لماذا سمّى الله عرب الجاهلية « الذين لا يعلمون » رغم معرفتهم بتلك المعلومات التى سجلها عليهم ، ولماذا قال سبحانه : «هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون؟» [2] كلا! إنهم لا يستوون!

وإذا تتبعنا كل ما كان عند العرب من «معلومات» عن الله سبحانه. نجد القرآن قد عاملها ذات المعاملة. سجل عليهم علمهم بها ، لا ليعتبره علمً ، ولا ليبدأ منه ثم يكمل . . كلا ! بل ليمحوه محوًا ، ويبدأ من جديد . . من ذات المعلومات ، ولكن بطريقته الخاصة التى تحولها إلى نبض حيّ وسلوك واقعى ! إنه فى الواقع يستنبت بذرة جديدة فى قلوبهم ، قد تكون فيها مشابه من البذرة الأولى التى كانت موجودة من قبل ، ولكنها غيرها على وجه التأكيد! إن القديمة أسنت وتعفنت فما عادت تصلح للاستنبات! وهذه غيرها . . جديدة تمامًا . .

---

(١) سورة لقمان : ٢٥ .   (٢) سورة الزمر : ٩ .

تستنبت من جديد . . بعد تحريك القلب لينبض ، ليمد البذرة الجديدة بالقوة والنماء . .

لذلك . . فما أضل الذين يكتبون مدافعين عن العرب فى الجاهلية بقولهم إنه كانت عندهم حضارة و « معلومات » ! يريدون ليقولوا ـ بل بعضهم يقول بالفعل ـ إنهم لم يكونوا جاهلين !

ما أضلهم إذ يقيسون الأمر بالمعلومات !

فهل كان عند العرب من المعلومات ما عند أوربا اليوم فى القرن العشرين ؟! ومع ذلك فأوربا اليوم فى قمة الجاهلية ، عن طريق هذه المعلومات بالذات ! لأنهم ، كما يقول القرآن ، « فرحوا بما عندهم من العلم » (1) و « نسوا الله فأنساهم أنفسهم » (2) وأضلهم وأشقاهم . . بعلمهم الذى يتيهون به ، فيتيهون فيه !

إنها ليست المعلومات كما أسلفنا . . ولكنها طريقة المعرفة . . طريقة تؤدى إلى عبادة الله؟ . . أم تؤدى إلى عبادة الشيطان ؟! .

* * *

قلنا إن العقيدة هى الموضوع الرئيسى أو الموضوع الوحيد فى السور المكية كلها .

والباب الأكبر للعقيدة هو التعريف بالله ، بالطريقة القرآنية التى تحول المعلومات إلى نبض حيّ وسلوك . . وسنتحدث إن شاء الله بشيء من التفصيل عن طريقة القرآن فى التعريف بالله ، والأوتار التى يوقع عليها فى القلب البشرى ليوقظه إلى حقيقة الألوهية وحقيقة الربوبية ، فيتوجه إلى الله بالعبودية الحقة ، ويستقيم على أمر الله .

ولكنا هنا نقول فى مقدمة الفصل : إن التعريف بالله سبحانه ، وإن كان أكبر أبواب العقيدة ، إلا أنه ليس الباب الوحيد الذى يستخدمه القرآن لتثبيت العقيدة وتمكينها . فهناك إلى جانب ذلك : الإيمان باليوم الآخر ، والإيمان بالكتب والرسل والنبوات والوحى . . ، وهناك قصص الأنبياء ، وهناك قصة آدم وقصة الشيطان مع آدم ، وهناك الأخلاق الإيمانية التى ينبغى التخلق بها بدلاً من الأخلاق الجاهلية التى ينبغى نبذها . . وكل أولئك يرتبطارتباطًا وثيقًا بالعقيدة ، ويؤكدها ويرسخها ، بحيث يعتبر بابًا من أبوابها .

وفيما يلى من الحديث تفصيل لتلك الأبواب الستة الكبرى من أبواب العقيدة ، وبيان الارتباط بين كل منها وبين العقيدة الصحيحة التى جاء القرآن ليبينها للناس . . .

---

(1) سورة غافر : ٨٣ . (2) سورة الحشر : ١٩ .

الإيمان بالله

إذا كانت العقيدة هى الموضوع الرئيسى فى القرآن كله ، مكيّة ومدنيّة ، فقضية الألوهية هى الموضوع الرئيسى فى العقيدة ، وهى التى تشمل الحيز الأكبر من مجموع الكتاب .

وهذا هو الأمر الطبيعى الذى لا غرابة فيه . . فحقيقة الألوهية ـ من جهة ـ هى الحقيقة الكبرى فى هذا الوجود كله ، التى يقوم الكون كله بها ، ومن جهة أخرى هى الركيزة الكبرى التى تقوم عليها عقيدة « الإنسان » .

وإذا كنا قد قلنا من قبل إن حديث القرآن المتكرر عن العقيدة ليس ناشئًا من إنكار العرب فى الجاهلية ، ولا ناشئًا من أن القرآن كتاب « دين » ، إنما هو الأمر الطبيعى بالنسبة لتكوين الإنسان ذاته ، وبالنسبة للأهمية الذاتية للموضوع ، فكذلك نقول هنا مرة أخرى إن الحديث المسهب عن الألوهية فى القرآن ليس سببه انحراف الجاهلية العربية ـ والجاهليات كلها ـ فى تصورها لله ، فإن السور المدنية التى نزلت للمؤمنين ـ لا للمشركين ـ ظلت تتحدث عن الألوهية باستفاضة وإسهاب ، وتلمس أوتار القلب البشرى بهذه القضية من كل جانب وفى كل مناسبة ، بحيث لا يعود لدينا شك فى أن القرآن يولى قضية الألوهية تلك الأهمية العظمى لا لذلك السبب العارض وهو انحراف الجاهلية العربية ، ولكن لسبب يتعلق «بالإنسان» ذاته فى كل حالاته ، وأن المؤمنين ـ وإن كانوا مؤمنين ـ لا يزالون فى حاجة دائمة إلى التذكير . .

والقرآن يخاطب فى قضية الألوهية مجموع « الإنسان » كله ، لا عقله وحده ولا وجدانه وحده ؛ ويخاطبه فى جميع حالاته ، ويتحدث عنه كذلك فى جميع حالاته : مقبلاً ومدبرًا ، صاعدًا وهابطًا ، حيّ الوجدان ومتبلد الحس ، متفتح البصيرة ومغلق البصيرة ، مستثارًا وهادئًا ، متطلعًا وخائفًا ، ضاحكًا وباكيًا ، مستكبرًا ومستسلمًا ، يقظًا وغافيًا ، مستقيمًا على أمر الله وجانحًا عن السبيل . . كما أنه ـ وهو يخاطبه ـ يحيط به من كل جانب ويدخل إليه من كل أقطار نفسه : من صفحة الكون المعروضة أمامه ، من الأحداث الجارية حوله ، من نفسه وما يجرى فيها ، من مشاهد الدنيا ومشاهد الآخرة ، مما تدركه الحواس وما لا تدركه

الحواس . . . كما يواجهه بحقيقة نفسه : عاجزًا ضعيفًا محتاجًا ، مقرًا بعجزه فى ساعة الكرب ملتجئًا إلى الله ساعة الشدة ، مستكبرًا طاغيًا حين تنتهى الشدة وتمر ، ويظن أنه استغنى عن الله ! إلا المصلين . . !

وبهذه المواجهة الدائمة الشاملة المحيطة يظل بالقلب البشرى حتى يتفتح لحقيقة الألوهية ، ثم يؤمن بها ، ثم يستقر الإيمان فى القلب ، ثم يستقيم على الإيمان !

* * *

قلنا إن الله أودع فى الفطرة أن تبحث عنه ، وتتجه إليه ، وتتعبده : « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ، وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى! شهدنا! »[1] .

ولسنا نعرف ـ كما أسلفنا ـ كيف تم ذلك الإشهاد . . ولكننا نلاحظ أشياء تدلنا على أن الفطرة تتيقظ ، فتتجه باحثة عن الله الذى أُشْهِدَتْ عليه فى عالم الذر ، وقد تهتدى فتعرفه على حقيقته وتعبده حق عبادته ، وقد تضل . فتتصوره على غير حقيقته ، وتتصور معه آلهة أخرى ، ثم تعبده على غير ما ينبغى لله سبحانه من إخلاص العبودية والطاعة له ، فتشرك معه فى العبادة تلك الآلهة الأخرى . . ولكنها فى الحالين تبحث عن الله ، وتتوجه إليه ، وتمارس لونًا من العبودية له .

هنالك أوتار فى القلب البشرى أعدها الله سبحانه لتتلقى إيقاعات معينة فتهتز . . فإذا اهتزت انطلقت الفطرة تبحث عن الله . وقد تهتدى فى بحثها وقد تضل . . ولكنها فى كل حال تنطلق إذا اهتزت الأوتار ، والإيقاعات التى تهزها لا تنقطع فى ليل أو نهار!

الكون أعظم إيقاع يوقع على أوتار القلب البشرى . .

الكون بضخامته الهائلة . .

والكون بدقته المعجزة . .

كلاهما توقيع هائل لا يمكن أن ينجو منه قلب إنسان . .

الكون بضخامته الهائلة التى لا تصل إلى مداها العيون . . بل لا تصل إلى مداها الأفكار! كان الإنسان ينظر بعينه المجردة فلا يصل إلا إلى أبعاد قريبة من الأرض ، وأبعاد قريبة من السماء . . وكانت هذه وتلك تهوله بضخامتها !

---

(١) سورة الأعراف : ١٧٢ .

ثم بدأ يصنع المناظير ، فامتدت رؤيته فى الأرض ، وأوغل ببصره فى السماء . . فزادت ضخامة الكون فى حسه ، وظلت تتزايد مع كل منظار جديد ، يكشف له من أغوار السماء خاصة ما لم يكن يراه من قبل . .

ثم تعدت الضخامة المحسوس . . وتحولت إلى أرقام !

هذا نجم يبعد عنا أربعة آلاف سنة ضوئية . . ويراه المنظار !

والحسبة التى تساوى أربعة آلاف سنة ضوئية حسبة لا يتصورها العقل . . إلا عن طريق الأرقام !

ثم جاء المنظار الإلكترونى . . إنه يسجل أبعادًا لا تُرى ! إنما تكتب فقط فى لوحة الأرقام !

ضخامة لا يمكن أن ينجو من وقعها الحس ، ولو أراد أن يتفلت ، ولو كابر أمام الناس !

ويهتز وتر فى القلب . . على هذه الضخامة الهائلة . . فتنطلق الفطرة تبحث : مَنْ وراء هذه الضخامة المعجزة ؟ من الخالق ؟ .

ثم تهتدى . . فتعرف الخالق على حقيقته . . أو تضل فتسميه « الطبيعة » . . أوتسميه كائنًا من كان !

* * *

ومع الضخامة الهائلة دقة معجزة كذلك !

هذا الكون الضخم الهائل لا يتحرك خبط عشواء . .

إنه يسير فى حركة دقيقة تبلغ حد الإعجاز . .

هذه الملايين ، بل ملايين الملايين ، من النجوم فى الكون لا يلتقى اثنان منها فى هذا الكون العريض ، ولا يقع بينهما صدام . . إلا أن يشاء الله . .

كل فى فلك يسبحون !

وتربطها جميعًا تلك الطاقة المعجزة التى تسمى « الجاذبية » . .

تربطها بحيث تتحرك كلها فى حركة منتظمة . . لا هى تتوقف ولا هى تصطدم . . إلاأن يشاء الله !

والشمس والقمر بحسبان !

حسبان دقيق لا يخطئ

تستطيع أن تنشئ جداول فلكية تحسب فيها الكسوف والخسوف لألف عام . . . ما لم يغيّر الله نظام الكون !

بل الكون هو الساعة العظمى التى تضبط عليها الساعات الفلكية الدقيقة . . التى تحسب الوقت بالساعة والدقيقة والثانية والثالثة (واحد من ستين من الثانية) . . بل هناك اليوم ساعات تحسب بجزء من مائة ألف جزء من الثانية . . مضبوطة كذلك على الأفلاك!

ثم . .

هذا العصفور الجميل الذى يسقسق فى الفضاء !

هل سمعت هذه السقسقة ذات الأنغام الدقيقة البالغة الدقة !

وهذا الطائر الملون الريش . .

هل رأيت كل ريشة مفردة كيف لُوّنت ؟ كيف تداخلت الخطوط والألوان على مئات أو ألوف من الشعيرات كلٌ تأخذ مكانها فى اللوحة الدقيقة البالغة الإعجاز ؟!

والزهرة الدقيقة الملونة . . والكائن الدقيق الذى لا يكاد يرى بالعين وهو حيّ مكتمل الحياة!

أى إعجاز فى تلك الدقة البالغة فى ذلك الكون الضخم الذى يروع بضخامته الحس والأبصار ؟!

وأى قلب يمكن أن ينجو من توقيعات تلك الدقة المعجزة ولا ينبعث يبحث عن الله . . سواء ضل بعد ذلك أم وصل إلى هداه ؟!

* * *

الموت والحياة كذلك من الإيقاعات المؤثرة فى أوتار القلب البشرى . .

فى مرحلة الطفولة ذات الحيوية الفائقة والخيال الذى لا يميز الحقيقة ، يتصور الطفل الحياة فى كل شيء بغير تمييز . . حتى الحائط . . حتى الأرض . . فضلاً عن اللعبة المصورة على شكل حيوان أو إنسان . . وحين يقع على الأرض أو يصطدم بالحائط وتؤلمه الصدمة يتصور أن الأرض هى التى ضربته ! ولذلك يرضى رضًا حقيقيًا حين تأتى أمه فتنتقم له بأن تضرب الأرض بيدها ! ويتصور أن ضربة الأم لها قد أوجعتها كما أوجعته هى . . فيكف عن البكاء !

وحين يكبر قليلاً يبدأ يميز بين الأشياء ، فيعرف أن القطة والكلب والكتكوت والعصفور أحياء حقيقية ، لأنها تأكل وتشرب وتتحرك مثله . . أما اللعبة والعصا وغيرها فليست حية حقيقية . . ولكنه مع ذلك ـ لفرط حيويته وسعة خياله ـ يضفى على هذه الكائنات الجامدة حياة من عنده . . ثم يصدقها ! فهو حين يكلم اللعبة أو يضربها أو يربت عليها لا يتعامل معها على أنها جامدة . . إنما هى حية أو شبه حية ، فى خيال لا يميز تمامًا بين الحقيقة

والخيال . . وحتى حين يكبر عن ذلك ويركب العصا على أنها حصان، ويضربها لتجرى ، ويعلم أنه هو الذى يجرى فى الحقيقة لا العصا . . حتى عندئذ فهو يعلم الحقيقة ولكنه يحب أن يخلع الحياة على هذه العصا الجامدة ويحبّ أن يرى الخيال كأنه حقيقة !

ولكنه يفاجأ يومًا بحادثة الموت . . حادة عنيفة فى حسه . .

يفاجأ بها فى موت القطة التى يلعب بها ، أو فى عصفور ميت . . أو فى أحد أقربائه . .

يفاجأ بأن القطة أو العصفور لا يتحرك . . ويحاول أن يطعمه أو يسقيه فلايستجيب . .

ويسأل عندئذ : لماذا لا يتحرك ولا يأكل ولا يشرب ؟ فيقال له : إنه مات . .

عندئذ تحدث المفاجأة الضخمة ! . . مات ؟! وما معنى الموت ؟

ويتعلم أن معناه فقد الحركة والقدرة على أن يأكل ويشرب وينطق . . ومعناه أنه سيغيب عن عالمه فلا يعود . .

هذه الصدمة الحادة التى تحزنه حزنًا بالغًا لا تغيب عن حسه بعد ذلك أبدًا . . لأنها تتكرر ـ ولابد أن تتكرر ـ فتغيّب عن عالمه أشخاصًا أو أشياء عزيزة عليه . . ويظل فى كل مرة يلدغه الألم على فراقها . .

ويكبر الطفل ويكبر . . فلا تزول عنه هذه الآثار بل تتعمق . . وكلما كبر وازدادت روابطه توثقًا مع الأشخاص والأشياء زاد تأثره بمن يغيب منها عن الوجود . .

هذه الظاهرة ، ظاهرة الموت والحياة ، عميقة الأثر جدًا فى حياة البشر ومشاعرهم . . لا ينجو منها حتى أبلدهم حسًا . . ولا يمكن أن تمر فى حياتهم بغير اهتزاز يطول أويقصر . .

ثم لا يمكن أن تمر دون أن توقظ فى حسهم سؤالاً عما وراء هذه الظاهرة العميقة التأثير .

كيف تحدث الحياة ؟تلقائية؟ وكيف تكون تلقائية؟أليس لابد لها من موجد يمنح الحياة ؟

ولماذا تتوقف ؟ لماذا يحدث الموت ؟ لماذا لا تعيش الأحياء إلى الأبد محتفظة بكل حيويتها؟

وماذا وراء الموت؟هل هى النهاية ؟ألا تعود الحياة إلى الكائنات أبدًا . . فى أية صورة من الصور ؟

تلك التساؤلات التى لا ينجو من وقعها الكائن البشرى ، هى توقيعات مؤثرة فى أوتار القلب ، تبعثه يبحث عن الخالق المحيى المميت . . الذى يمنح الحياة ويأخذ الحياة . . ثم يهتدى فيعرف الله على حقيقته ، أو يضل فيتصوره قوة من القوى ، أو شيئًا من الأشياء . .

* * *

الأحداث الجارية التى لا تكف عن الحدوث والتتابع . . هى أيضًا ذات توقيعات على أوتار القلب البشرى . .

كيف تحدث الأحداث ؟ ماذا وراءها ؟ ومَنْ وراءها ؟

تحدث خبط عشواء ؟ أم تحدث بتدبير ؟ وما سر التدبير وما حكمته ؟

هذا الطفل الوليد الذى يموت وأهله فى لهفة حادة إلى وليد . . وذلك الشيخ الذى وصل إلى أرذل العمر ولمّا يتزحزح بعد !

هذا الشاب الذى مات فى عنفوان شبابه ووراءه أسرة كان يعولها لا عائل لها - فى المنظور - غيره . . وذلك المريض الذى لا يقوى على الحركة ولا يأتيه الموت بعد !

هذا الحادث الذى أصاب السيارة فنجا منه فلان . . وفلان إلى جواره تمامًا لم يبق منه جزء على جزء !

هذا الغنىّ الذى لا يعرف لأمواله حصرًا ولا لإنفاقه حدودًا . . وهذا الفقير الذى لايجد قوت يومه . .

هذا الذى يُرزق الأولاد والأحفاد حتى تفيض عن طاقة مشاعره . . وذلك الذى يتلهف على ولد واحد يخلفه فى الحياة . .

هذا المُلْك الذى هوى . . والملك الذى احتل مكانه . .

تلك الأيام المتداولة بين الناس . .

هل هى خبط عشواء ؟ هل وراءها سر ؟ هل يحكمها تدبير . . ؟

ومن صاحب التدبير ؟!

ألا إنها لشيء محيّر . . حتى أبلد الناس حسًّا لا ينجو من الحيرة منه . . والتفكير فيه . .

ثم يروح يتساءل : مَنْ وراء الأحداث ؟ وماذا وراء الأحداث . . ثم يهتدى إلى الله الحق، أو يضل فى التيه . .

* * *

عجز الإنسان الدائم يلجئه إلجاءً إلى التفكير فى القدرة التى لا يعجزها شيء . .

يولد الطفل عاجزًا عن كل شيء . . ولولا أمه ترضعه ، وتأخذه فى حضنها ، وتقضى له حوائجه كلها ما أمكن أن يعيش . .

ثم يبدأ يحس بالقدرة على بعض الأشياء . .

يبدأ يحرك أصابعه . . ويحرك يده . . ويحرك عضلات ساقيه وأصابع قدميه . . ويحرك رأسه . . ولكن هذا كله داخل حضن الأم ما يستطيع أن يغادره بعد . .

ثم يحس بمزيد من القدرة . . فهو الآن فى خارج الحضن يتحرك بعض الحركات . .

ويفرح فرحًا هائلاً ولا شك بمقدرته تلك . . ولكنه يتطلع إلى المزيد . .

ويأتى يوم يحبو فيه على الأرض . . إنه يتطلع إلى الوقوف والمشى !

ثم يقف ويمشى يترنح ويسقط ثم يعود فيقوم . . إنه يتطلع إلى الوقوف الثابت والمشى المتمكن . .

ويصل إلى ذلك ذات يوم . . إنه يريد أن يطول النافذة وأكرة الباب . .

ويطول هذه وتلك ذات يوم . . ثم يتطلع إلى مزيد من القدرة ومزيد من القوة ومزيد من التمكن . .

ويكبر . . كما شاء الله أن يكبر . . ويبلغ من القوة مداه . . فهل يتوقف عن التطلع لحظة ، ويكتفى بما وصل إليه من التمكين ؟

كلا إنه ليحس بمزيد من العجز كلما بلغ مزيدًا من القدرة ! !

إن تطلعاته لا تقف عند حد . وكلما توصل إلى شىء من القدرة أغراه ذلك بالتطلع إلى المزيد ، فيحس بالعجز عن ذلك المزيد . . ويحاول من جديد . . ويصل إلى شىء مما يريد . . فيتطلع . . فيحس بالعجز . .

لقد فجر الطاقة النووية . . ووصل إلى القمر . . وقد يصل غدًا إلى أغوار جديدة فى الكون الفسيح ما كان يحلم بها من قبل . . فهل أشبعه ذلك كله فكف عن التطلع ؟ أو أرضاه فلم يعد يحس بالعجز ؟ . .

كلا ! إنه فى الحقيقة يريد ألا يعجز أبدًا ! يريد أن تكون له السيطرة الكاملة على كل شيء . . يريد أن يقول للشىء كن . . فيكون ! ولكنه يعرف أن ذلك لن يكون !

لذلك فما فتئ يحس بالعجز ، مهما وصل إلى الأفلاك ، ومهما سخّر من الطاقات !

وعجزه الدائم ذلك يلجئه إلجاءً إلى التفكير فى تلك القدرة التى لا يعجزها شىء ، من وراء هذا الكون الهائل الذى لا يقدر هو على شىء منه . إلا فُتَاتًا من القدرة لا يغنيه . . ولا يرضيه . .

عندئذ ينطلق يبحث عن تلك القدرة القادرة . . فيهتدى . . أو يمعن فى الضلال البعيد . .

* * *

الرغبة فى استكناه الغيب رغبة حادة ملحة لا ينجو منها بشر فى الأرض . .

والعجز عن استكناه الغيب أمر لا مفر من الشعور به فى القلب البشرى . .

ويروح الناس ـ منذ القدم ـ يحتالون على معرفة الغيب ، ويحاولون استشفاف ما يأتى به الغد القريب أو البعيد . .

لجأوا إلى الكهانة والعرافة والتنجيم . . وراحوا يستلهمون الرؤى . . ويستلهمون الأحاسيس الباطنة فى داخل النفس ، التى لا تعتمد على منطق واضح ولكنها تشير . .

لجأوا إلى كل وسيلة يحاولون بها إزاحة الستر عن الغيب المحجوب عن الأعين . . المغلف بالأستار . .

ولم يصلوا قط إلى يقين . .

كل ما يصلون إليه تكهنات تخطئ أو تصيب . .

ويظل العجز باقيًا كما هو . . حادًا كما هو . . واللهفة لا تريم . .

إنه ليس عجزًا عن استكناه الغد البعيد وحده . . ولا الغد القريب وحده . . بل هو عجز عن استكناه ما يحدث بعد ساعة واحدة من الزمان . . بل بعد لحظة . . بل فى هذه اللحظة التى أطل جزء منها من عالم الغيب ، وبقيتها مغلفة بالأستار !

ويعود الإنسان من رحلته الملهوفة وراء الغيب ، وعجزه الكامل عن استكناهه . . يعود إلى الله ! المحيط بهذا الغيب المطّلع على كل خفاياه . . سواء عرف الله على حقيقته أم ضل عنه إلى سواه !

* * *

تلك أوتار فطرية فى القلب البشرى ، أودعها الله فى الفطرة ، لتتلقى إيقاعات الكون والحياة والوجود . . لتهتز بما تتلقى من إيقاعات ، فتنطلق تبحث عن الله . . إنها ـ كما نستطيع أن نقول ـ موحيات العقيدة فى القلب البشرى .

والقرآن ـ وهو يعرف الناس بالله ـ يوقع على ذات الأوتار المودعة فى الفطرة . . ليهزها فتستيقظ . . ويحركها فتنفعل . . وفى لحظة انفعالهايقول لها : إنه الله ! . . ثم يقول لها : «ذلكم الله ربكم لا إلـه إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه ! »[1] .

« إن الله فالق الحب والنوى ، يخرج الحىّ من الميت ومخرج الميت من الحى . ذلكم الله فأنى تؤفكون ؟ فالق الإصباح وجعل الليل سكنًا والشمس والقمر حسبانًا ذلك تقدير

(١) سورة الأنعام : ١٠٢ .

العزيز العليم . وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر . قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون . وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع . قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون . وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء ، فأخرجنا منه خَضِرًا نخرج منه حبًّا متراكِبًا ، ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان ، مشتبهًا وغير متشابه . انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه . إنّ فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون . وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون . بديع السماوات والأرض أنىّ يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شىء وهو بكل شئ عليم . ذلكم الله ربكم لا إلّـه إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير »[١].

« وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين »[٢].

« فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ، وله الحمد فى السماوات والأرض وعشيًا وحين تظهرون . يخرج الحىّ من الميت ويخرج الميت من الحىّ ، ويحيى الأرض بعد موتها . وكذلك تُخْـرَجون . ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون . ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها . وجعل بينكم مودة ورحمة . إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم . إن فى ذلك لآيات للعالمين . ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله . إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون . ومن آياته يريكم البرق خوفًا وطمعًا وينزل من السماء ماءً فيحيى به الأرض بعد موتها . إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون . ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ، ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون . وله من فى السماوات والأرض كل له قانتون . وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ، وهو أهون عليه ، وله المثل الأعلى فى السماوات والأرض ، وهو العزيز الحكيم »[٣].

« لله ما فى السماوات والأرض . إن الله هو الغنى الحميد . ولو أنّ ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله . إن الله عزيز حكيم . ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة . إن الله سميع بصير . ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ، وسخر الشمس والقمر كل يجرى إلى أجل مسمى ، وأن الله بما تعملون

---

(١) سورة الأنعام : ٩٥ ـ ١٠٣ . (٢) سورة الأنعام : ٥٩ . (٣) سورة الروم : ١٧ ـ ٢٧ .

خبير؟ ذلك بأن الله هوالحق وأن ما يدعون من دونه الباطل ، وأن الله هو العلى الكبير » [١].

« والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجًا . وما تحمل من أنثى ولا تضع إلابعلمه . وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب . إن ذلك على الله يسير . وما يستوى البحران : هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج . ومن كلٍّ تأكلون لحمًا طريًا وتستخرجون حلية تلبسونها ، وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ، وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى . ذلكم الله ربكم له الملك . والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير »[٢].

« أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، وكانوا أشد منهم قوة . وما كان الله ليعجزه من شىء فى السماوات ولا فى الأرض ، إنه كان عليمًا قديرًا » [٣].

« أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ؟ وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه . قال : من يحيي العظام وهى رميم ؟ قل : يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم . الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارًا فإذا أنتم منه توقدون . أو ليس الذى خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم؟ بلى ! وهو الخلاق العليم . إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له : كن ! فيكون ! فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون » [٤].

« هو الذى خلقكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم يخرجكم طفلاً ، ثم لتبلغوا أشدكم ، ثم لتكونوا شيوخًا ، ومنكم من يتوفى من قبل ، ولتبلغوا أجلاً مسمىً ولعلكم تعقلون . هو الذى يحيى ويميت ، فإذا قضى أمرًا فإنما يقول له : كن . فيكون»[٥].

« لله ملك السماوات والأرض ، يخلق ما يشاء ، يهب لمن يشاء إناثًا ويهب لمن يشاء الذكور . أو يزوجهم ذكرانًا وإناثًا . ويجعل من يشاء عقيمًا . إنه عليم قدير » [٦].

* * *

إن الحس البشرى ليتبلد على المنظر المكرور والتجربة المكرورة ، فلا تعود تهزه كما هزته أول مرة . . ولا يستشعر لها الوجيب والحركة الوجدانية التى صاحبتها أول مرة وهى تلقى بشحنتها الكاملة للحس المتفتح المتوفز . . ومن هنا تفقد دلالتها ، فلا تعطى توقيعها الصحيح على أوتار القلب البشرى . . لأن هذا القلب قد « ران » عليه ما جعله لا يستجيب . .

---

(١) سورة لقمان ٢٦ ـ ٣٠ . (٢) سورة فاطر : ١١ ـ ١٣ . (٣) سورة فاطر : ٤٤ .
(٤) سورة يس : ٧٧ ـ ٨٣ . (٥) سورة غافر : ٦٧ ـ ٦٨ . (٦) سورة الشورى : ٤٩ ـ ٥٠ .

وهنا يأتى القرآن بطريقته الفذة فيمسح تلك القشرة الصلدة التى رانت على الحس فتبلد، ورانت على القلب فلم يعد يستجيب . .

ولكأنه ـ حين يزيل تلك القشرة الجاسية ـ يصل إلى العصب الحىّ ، فيطلق له الشحنة فيتلقاها بكاملها . . كأنها يتلقاها أول مرة . . فيهتز لها اهتزاز التجربة الجديدة . . وينفعل بها كمن يعيشها أول مرة . . وحين يبلغ الاهتزاز ذروته ، والانفعال بالتجربة أشده ، يقول له : إنه الله ! إنه الله الخالق المبدع المصور . . إنه الله الرزاق . . إنه الله المحيي المميت . . إنه الله مدبر الكون كله بما فيه . . إنه الله عالم الغيب والشهادة . . إنه الله القادر الذى لا يعجز قدرته شىء . .

« ألم تر إلى ربك كيف مدّ الظل ، ولو شاء لجعله ساكنًا ، ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً . ثم قبضناه إلينا قبضًا يسيرًا . . »[1].

تُـرَى هل أنت هنا مع الظل الذى تراه كل يوم ، لا يلفت حسك ولا يثير انتباهك ؟

وهل تستطيع أن تقرأ الآيتين السالفتين ثم يظل إحساسك بالظل كما كان من قبل ؟

إنه هنا كائن جديد ولا شك . وقد تدخلت جملة عناصر لتمنحه هذه الجدة التى تعطى الحس شحنتها ، فتعطيه دلالتها !

فأنت ترى حركة الظل الرتيبة كل يوم ، وترى انتقاله من مكان إلى مكان ، ولكنك لا تخرج به فى حسك عن أسبابه القريبة الظاهرة ، ومن أجل ذلك لا يعود يشغل حسك ، ولا تلتفت إليه إلا حين تتفيؤه هروبًا من الحر ، أو تنظر إليه لتقدير الوقت ، وفى هذه وتلك لا يشغل من نفسك ولا مشاعرك إلا اللمحة العابرة التى تنطفئ من توهًا وتروح !

ولكنك هنا ـ مع الآيتين ـ فى جوٍّ آخر ، مختلف تمام الاختلاف .

إنك بادئ ذى بدء مع حقيقة قد تفجؤك لأول وهلة ! إن الظل ليس متحركًا من تلقاء نفسه ، ولا تلقائيًا من حركة الشمس الظاهرية التى يفسرها العلم بأنها ناشئة من حركة الأرض حول الشمس . .

إنه متحرك لأن الله هو الذى حركه !

« ألم تر إلى ربك كيف مدّ الظل ، ولو شاء لجعله ساكنًا ! » .

فحركته إذن ليست وليدة هذه الأسباب الظاهرة التى تجعل تحركه أمرًا « حتميًا » حسب «قوانين الطبيعة » ! وإنما لأن الله هو الذى مدّه وحركه . ولو شاء الله أن يجعله ساكنًا لسكن،

(١) سورة الفـرقان : ٤٥ ـ ٤٦ .

ولما استطاعت قوة فى الوجود أن تحركه من سكونه الذى أراده له الله . .

وكون الله سبحانه وتعالى هو الذى أودع الكون تلك الصفات التى تنشأ منها فى النهاية حركة الظل ، هذه حقيقة . ولكن التعبير القرآنى يصلك رأسًا بالمشيئة الإلـهية التى حركت الظل ، متخطيًا الأسباب الظاهرة هو الذى يفتنه عن رؤية الحقيقة الكبرى من ورائها ، وهى إرادة الله التى تقول للشىء كن فيكون ، فيروح ينسب المشيئة لتلك الأسباب ، ويسميها «قوانين الطبيعة» ويقول إنها « حتمية » ، فيتبلد حسه من جراء ذلك ويبعد قلبه عن الله .

والتعبير القرآنى يأخذه من هناك ، من حيث تبلد حسه وبَـعُد ، فيرده مرة أخرى إلى الله !

ومرة أخرى تستوقفنا الآية ، لتردنا إلى الله . .

« ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً » !

إن « العلم » يقول لنا ـ بحسب ما يرى من الأسباب الظاهرة ـ إن وجود الشمس ، وحركة الأرض حولها ، هما السبب فى حركة الظل . . ولكن التعبير القرآنى يقول لنا إن إرادة الله هى التى حركت الظل ابتداء ، « ثم » جَـعَلت الشمس دليلاً على الظل ! فليست الأسباب الظاهرة هى الأصل ، ولكنها تجىء تالية ، بل تجىء على التراخى بلفظ « ثم » ، بعد تقرير الله للأمر بمشيئته ، التى تقول للشىء كن فيكون !

ثم نتحرك مع السياق حركة جديدة . .

« ثم قبضناه إلينا قبضًا يسيرًا » .

إن التعبير يصور حركة الظل الوئيدة التى تراها العين فلا تلتفت إليها ، أو لا تلتفت إليها بكليتها . ولكن الخيال هنا ـ مع التعبير القرآنى ـ لا يملك أن يفلت من أسر الصورة التى تصورها تلك الكلمات القلائل فى إبداع معجز ! إن الظل هنا لا يتحرك راجعًا من تلقاء نفسه ، ولا من أثر الأسباب الظاهرة التى نعرفها . . إننا مع السبب الحقيقى مرة أخرى .

ولكنا نقف مبهورين ننظر إلى الظل وهو يقفل راجعًا بعد ما امتد . . لماذا ؟! لأن يدًا خفية هى التى تطويه فى حركة وئيدة كحركة الظل . . إنها يد الله ! وهكذا تجدنا مع الله مرة أخرى ، نرقب ـ من خلال حركة الظل ـ قدرته القادرة ، ويده الخفية ـ سبحانه ـ التى لا تدركها الأبصار !

على أن أروع ما فى التعبير القرآنى فى الآية هو هذه اللفظة . . « إلينا» : « ثم قبضناه إلينا قبضًا يسيرًا » .

أتدرى ماذا فعلت هذه اللفظة المفردة فى كيان الصورة كله ؟!

لقد كنت ـ بخيالك ـ تتتبع حركة الظل الوئيدة فى ذهابه وأوبته ، هنا ! هنا فى الأرض! ويمتد بك البصر ـ أوالخيال ـ إلى الشمس حين تقرأ : « ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً » وينتهى بك الخيال هناك . ولكنك ـ فجأة ـ حين تصل إلى كلمة « إلينا » تجد إطار الصورة قد امتد وامتد ، وجاوز الشمس والأرض . . إلى . . ؟ إلى غير حدود ! « إلينا » !

وليصنع خيالك ما يشاء !

« لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » (١).

* * *

« وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتًا ومن الشجر ومما يَعْرِشون . ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللاً ، يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس . إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون » (٢).

نحن هنا مع النحل ، وهى كائنات متحركة دءوب لا تكاد تكف عن الحركة والنشاط . ولقد تلفت حِسَّنا بالفعل بحركتها ونشاطها حين نراها تطير من زهرة إلى زهرة ، وتحط عليها ترشف من رحيقها فترة ثم تطير . . ولكنا ننساها بعد لحظة ونمضى ؛ لأننا نرقبها فى إطارها القريب الذى تدركه حواسنا فحسب . وقد تثير تأملنا ، وعجبنا وإعجابنا ، ولكنا حتى فى ذلك لا نخرج بها من إطارها الذاتى الذى تأملنا من خلاله . . وهو فى النهاية قريب !

ولكنا مع السياق القرآنى من أول لحظة فى محيط آخر !

إننا لسنا مع النحل ، ولكننا مع الله !

« وأوحى ربك إلى النحل . . »

فليس النحل إذن هو الذى يتحرك من تلقاء نفسه تلك الحركة العجيبة التى قد تستوقفنا عندها فى بعض الأحيان بضع لحظات ، أو حتى ساعات ! إنما هو الله « أوحى » إليه ، بمعنى ألهمه : « ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى » (٣).

ومن هنا لا تنتهى حركة النحل فى حِسِّنا من قريب؛ لأنها ـ باديءَ ذى بدء ـ خرجت فى حِسِّنا من إطارها القريب واتصلت بوحى الله وإلهامه ، واتصلت ـ من ثم ـ بتدبير الله لأمور الكون بكل ما فيه وكل من فيه ، فدخلت فى إطار واسع عميق ممتد فى الآفاق !

ثم إن الحركة التى ترسمها الألفاظ فى الصورة حركة حية كذلك ، وأوسع مدى فى الحقيقة من الحركة التى تراها العين لأول وهلة . . مما يمد فى أبعاد الصورة فى حِسِّنا ويعمقها .

---

(١) سورة الأنعام : ١٠٣ . (٢) سور النحل : ٦٨ ـ ٦٩ . (٣) سورة طه : ٥٠ .

فالنحل تتلقى الإلهام من الله أن تتخذ بيوتًا لها من الجبال ومن الشجر ومما يعرشون ، أى مما يزرع البشر من نبات ذى عروش كالكروم . . ثم هى ـ كما توحى الصورة إلى خيالنا ـ تنفذ الأمر فتتخذ بيوتها هناك !

وهناك فارق واضح فى « عمق » الصورة فى حِسِّنا بين رؤية العين للنحل تبنى عشوشها هنا وهناك ، وبين رؤيتها فى الإطار الذى ترسمه ألفاظ الآية ، تتلقى من الله الوحى ثم تصدع بالتنفيذ !

وبُـعْـدٌ آخر يمتد فى الصورة من قوله : « ومما يعرشون » !

إنها علاقة الأحياء بالأحياء !

فالوحى يصدر إلى النحل ـ وهى كائنات حية ـ أن تتخذ بيوتًا مما يعرش البشر ـ وهم كائنات حية ـ فيبدو هناك نوع من التعاون والتآزر بين هذه الأحياء يقدره الله ويريده فيتم فى واقع الحياة !

ويستمر السياق يفصّل الوحى الصادر إلى النحل :

« ثم كلى من كل الثمرات ، فاسلكى سبل ربك ذللاً » .

ومرة أخرى نرى الاختلاف فى عمق الصورة بين أن تكون النحل من تلقاء نفسها تأكل من كل الثمرات كما يبدو لظاهر أعيننا حين نحصر الصورة فى أبعادها القريبة ، وبين أن تكون هذه الحركة ذاتها تلبية للوحى الصادر إليها من الله . ثم بين أن تكون حركة النحل حركة عشوائية كما تبدو فى ظاهرها ، أو حتى منسقة على وتيرة معينة يمكن للعلم أن يكتشفها ويسجلها ، وبين أن تكون سالكة فى حركتها سبل ربها المذللة لها بأمره سبحانه ومشيئته ! فأنت فى الصورة الأولى تتعامل مع النحل ، بينما أنت فى الصورة القرآنية تتعامل ـ فى كل جزئية من جزئياتها ـ مع الله ! والنحل موجود فى الصورتين . . ولكنه فى الأولى نهاية المنظر ، ونهاية المطاف ، بينما هو فى الثانية بداية المنظر ، وبداية المطاف!

* * *

هل تغيرت « معلوماتك » عن الظل أو عن النحل حين قرأت هذه الآيات ؟!

كلا ! إن « المعلومات » فى ذاتها ليست جديدة . لقد كانت معلومة من قبل ، ولكنه ذلك العلم الميت البارد الساكن الذى لا يتحرك . ولكن القرآن يحيى هذه المعلومات حين يعرضها فى جوّه الوجدانى بطريقته المعجزة فتنتفض حية كأنها ليست هى التى كنا نعرفها من قبل ! وما تغيرت هى ! إنما نحن الذين تغيّرنا ! حين زال عن حسّنا التبلد للتجربة المكرورة والمنظر المكرور . .

* * *

وكما يصنع القرآن هذه العجيبة فى مشاهد الكون المنظورة فهو يصنعها كذلك مع أحداث الماضى الذى مّر ، والمستقبل الذى سيجىء !

« نحن نقص عليك نبأهم بالحق : إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى . وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا : ربنا رب السماوات والأرض لن ندعو من دونه إلهًا ، لقد قلنا إذًا شططا . هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بيّن ؟! فمن أظلم ممن افترى على الله كذبًا ؟ وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقًا . وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم فى فجوة منه ، ذلك من آيات الله ، من يهدِ الله فهو المهتدِ ومن يضلل فلن تجد له وليًّا مرشدًا . وتحسبهم أيقاظًا وهم رقود ، ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد . لو اطلعت عليهم لولّـيْـتَ منهم فرارًا ولملئت منهم رعبًا . وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم . قال قائل منهم : كم لبثتم ؟ قالوا لبثنا يومًا أو بعض يوم ! قالوا : ربكم أعلم بما لبثتم فابعثوا أحدكم بِوَرِقِكُم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعامًا فليأتكم برزق منه ، وليتلطف ولا يشعرن بكم أحدًا . إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم فى ملتهم ، ولن تفلحوا إذًا أبدًا . وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها ، إذ يتنازعون بينهم أمرهم ، فقالوا : ابنوا عليهم بنيانًا ، ربهم أعلم بهم . قال الذين غلبوا على أمرهم : لنتخذن عليهم مسجدًا »(1) .

تلك قصة من قصص الماضى . . فهل تحس أنها « قصة » تروى ؟ أ، واقع تشهده أمامك اللحظة وتنفعل بأحداثه ؟

إن السياق ليحيي المشهد إحياءً فإذا هو شاخص أمامنا نرقبه ونعيش معه منظرًا منظرًا ولحظة لحظة . .

وتبدأ القصة فى الماضى كما هو ظاهر ، وتُستخدم صيغة الفعل الماضى لتؤكد ذلك . ولكن يحدث ذلك فقط ريثما نتمثل أشخاص القصة وموضوعها وجوها العام حتى نستطيع أن نعيش معها فى ذلك الجو . . وعندئذ يتحول السياق !

« وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف » .

ماذا تحس من التعبير ؟ هل هى رواية عن الماضى أم إن الخطاب يوجه اللحظة إلى الفتية فيقال لهم ـ الآن ـ اؤوا إلى الكهف ما دمتم قد اعتزلتم قومكم وما يعبدون إلا الله ؟

---

(1) سورة الكهف : ١٣ ـ ٢١ .

إن تغييرًا طفيفًا فى السياق هو الذى غيّر المشهد من الماضى المروى إلى الحاضر المشهود . فهو لم يقل : وإذ اعتزلوهم وما يعبدون إلا الله قلنا لهم أووا إلى الكهف . . إنما قال : «وإذ اعتزلتموهم . . » ثم قال : « فأووا إلى الكهف » فالسياق يخاطبهم ولا يروى عنهم . يخاطبهم كأنهم حضور فى هذه اللحظة يستمعون الخطاب ويتلقون التوجيه !

ثم يستمر السياق فى الحاضر باستخدام الفعل المضارع :

« وترى الشمس . . » « تزاور عن كهفهم . . » « تقرضهم . . » « وتحسبهم إيقاظًا وهم رقود » « ونقلبهم . . » .

حتى إذا وصلت القصة نهاية المرحلة التى تصور فترة الرقود ، وبدأت مرحلة جديدة هى بعثهم من رقادهم ، عاد استخدام الفعل الماضى : « وكذلك بعثناهم . . » ولكنه هنا كذلك لا يُستخدم للرواية عن الماضى بقدر ما يستخدم لتقديم حلقة جديدة ، أى لتغيير «الجوّ» وتهيئة المشاعر لمشاهدة هذه الحلقة الجديدة المغايرة للسابقة بكل أحداثها، والتى تعرض هى بدورها كأنها حاضر مشهود وذلك باستخدام أسلوب أقرب إلى الحوار المسرحى منه إلى الرواية القصصية ، فنعيش مع الحوار كأنه واقع نراه أمامنا اللحظة ، ونتابعه فى ذات اللحظة التى يدور فيها بين أصحاب الحوار ! وبهذا كله تظل القصة حية فى خواطرنا ، لأننا « شهدناها » تعرض أمامنا ولم نسمع عنها مجرد سماع !

على أن القصة بكل حيويتها تلك لا تأتى فى السورة هنا من أجل المتاع الفنى ، وإن كان المتاع الفنى يتحقق بكامله ، وإنما هى ـ ككل شىء فى القرآن ـ تأتى مرتبطة بقضية الألوهية ، نابعة منها ، ومؤدية إليها . وهذه الحيوية الملحوظة ، المبثوثة فى كل كيان القصة ، إنما هى وسيلة مقصودة لإحياء هذا الارتباط بقضية الألوهية فى قلب الإنسان .

فالمقدمة المباشرة التى جاءت القصة لبسطها وتجليتها هى هذه :

« فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » [١] .

وهى ـ كما ترى ـ تتضمن حقيقتين : الأولى أن القوم مكذبون ، لا يؤمنون بالقرآن وما يرد فيه من ذكر البعث . وذلك بالرجوع إلى ما تضمنته الآيات الأولى من السورة : « الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجًا ، قيمًا لينذر بأسًا شديدًا من لدنه ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرًا حسنًا ، ماكثين فيه أبدًا . وينذر الذين قالوا : اتخذ الله ولدًا . . . » [٢].

---

(١) سورة الكهف : ٦ .
(٢) سورة الكهف : ١ ـ ٤ .

والحقيقة الثانية أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ مهتم لهذا الأمر أشد الاهتمام ، قد اشتد به الأسف لتكذيب القوم .

ثم تستمر المقدمة لتصرف عن قلب الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذا الأسف العميق بتقرير شيء من الحقائق الكونية أو السنن الربانية التى يتضح من خلالها موقف القوم ، وتقويمه فى ميزان الله ، ثم مصيرهم هم فى نهاية المطاف :

« إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً . وإنا لجاعلون ما عليها صعيدًا جرزًا »[1].

فكل « ما على الأرض » قد جعل « زينة لها » لابتلاء البشر : أيهم تفتنه هذه الزينة فتصده عن طريق الله وتبعده عنه ، وأيهم يلتزم من هذه الزينة بالطيب الحلال الذى أحله الله، ثم يشكر النعمة بالاستقامة على أمر الله فيما أمر به ونهى عنه . ثم إن ما على الأرض كله يأتى عليه حين من الدهر ينقلب فيه ـ بأمر الله ـ « قاعًا صفصفًا » أو « صعيدًا جرزًا » خاليًا من الزينة التى كانت تفتن الناس ، ويعقب ذلك البعث الذى يكذب به المكذبون، حيث يجزى الناس بأعمالهم فى الحياة الدنيا : « فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرًا يره »[2].

ثم يستمر السياق ليقول إنه إن كان هناك مكذبون بالبعث فليستمعوا إذن لهذه القصة، التى تؤكد قدرة الله على البعث والإحياء ، وهى ليست « عجبًا » من أمر الله ، إنما هى مجرد مظهر من مظاهر قدرته سبحانه .

وهكذا تجيء القصة فى معرض إثبات القدرة الإلـهية . . مرتبطة بقضية الألوهية . . تلك القضية الكبرى فى القرآن !

* * *

« واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانًا شرقيًا ، فاتخذت من دونهم حجابًا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرًا سويًا . قالت : إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيًا . قال : إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلامًا ذكيًا. قالت :أنَّى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر، ولم أكُ بغيًّا ؟! قال : كذلك قال ربك هو عليّ هيّن ، ولنجعله آية للناس ورحمة منا ، وكان أمرًا مقضِيًّا ، فحملته ، فانتبذت به مكانًا قصيًّا ، فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت : يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيًا منسيًا ، فناداها من تحتها : ألا تحزنى ، قد جعل

---

(١) سورة الكهف : ٧ـ٨ . (٢) سورة الزلزلة : ٧ـ٨ .

ربك تحتك سريًّا ، وهزّى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبًا جنيًّا فكلى واشربى وقرى عينا ، فإما تَـرَيِنَّ من البشر أحدًا فقولى : إنى نذرت للرحمن صومًا فلن أكلم اليوم إنسيًّا . فأتت به قومها تحمله . قالوا : يا مريم ! لقد جئت شيئًا فريـًّا ! يا أخت هرون : ما كان أبوك امرأ سَـوْءٍ وما كانت أمك بغيـًّا ! فأشارت إليه ، قالوا : كيف نكلم من كان فى المهد صبيًّا ؟! قال : إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيًّا ، وجعلنى مباركًا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيـًّا ، وبرًّا بوالدتى ولم يجعلنى جبارًا شقيـًّا ، والسلام علىّ يوم ولدت ، ويوم أموت ، ويوم أبعث حيًّا » (١) .

هذه قصة أخرى من قصص القرآن الحية المؤثرة التى يسوقها القرآن لتحقق أهدافه الخاصة ، وإن كانت المتعة الفنية متحققة فيها كأية قصة منشأة للمتعة الفنية خاصة !

والغالب فى القصص القرآنى ـ لأنه كتاب تربية وليس كتاب قصة ـ أن تُـعْـرَضَ «لقطات» بعينها من حياة الشخصية التى تتحدث عنها القصة ، تكون هى موضع العبرة وموضع التأثير ، ولا تُسْرد كل وقائع القصة ولا كل ملابساتها لأن ذلك لا يناسب الأهداف الخاصة للقرآن . وإن كانت هذه الطريقة ذاتها ـ طريقة عرض لقطات بعينها ـ تعطى القصة القرآنية حيوية خاصة ، لأنها تدع للخيال أن يملأ الفجوة ما بين اللقطة واللقطة ، فيكون للخيال عمل مزدوج : متابعة المشهد المعروض ، وإكمال ما بين المشهد والمشهد من فجوات .

وقصة مريم من أبرز نماذج القصص القرآنى الذى يسير على هذا النهج « الفنى » !

فها هى ذى اللقطة الأولى تصور مريم العذراء البتول فى خلوتها ، وبينها وبين أهلها حجاب يمنع دخول أحد إليها ، وهى المعروفة منذ طفولتها بالتبتل والانقطاع للعبادة ، إذ نذرتها أمها للمعبد كما جاء فى سورة آل عمران : « إذ قالت امرأة عمران رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محررًا فتقبل منى إنك أنت السميع العليم . فلما وضعتها قالت رب إنى وضعتها أنثى ـ والله أعلم بما وضعت ـ وليس الذكر كالأنثى ، وإنى سميتها مريم ، وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ، فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتًا حسنًا وكفّلها زكريا ،

كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقًا ، قال : يا مريم أنّى لك هذا ؟ قالت : هو من عند الله . إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » (٢).

وفى خلوتها تلك الآمنة الطاهرة يفجؤها وجود رجل لا تعرفه ، ولا ينبغى له بحال أن يوجد فى مكانها هذا وعلى حالها التى كانت عليها فى خلوتها ! ويُـتْـرَك للخيال أن يتصور

---

(١) سورة مريم : ١٦ ـ ٣٣ . (٢) سورة آل عمران : ٣٥ ـ ٣٧ .

فزعها من المفاجأة المذهلة أولاً ، وفزعها من وجود رجل معها فى خلوتها ثانيًا وهى العفيفة النقية الطاهرة . وحين تلتقط أنفاسها من هذا الفزع وذاك ، تلتفت إلى هذا الرجل الغريب تستنجد بتقواه ، وتذكّره بالله لعله يتركها فى خلوتها وينصرف دون أن يمسها بسوء . ولكنه يفاجئها بمفاجأة أكبر من الأولى وأشق ! إنه يحدد مهمته ، فكأنها هى ذات الشيء الذى كانت تحذره فيما بينها وبين نفسها وتخشاه ! إنه جاء ليهب لها غلامًا ! وعندئذ لا تجد مفرًا من المواجهة الصريحة بالعبارة الصريحة فقد انكسر حاجز الحياء ولم يعد فى إمكانها أن تتستر به بعد أن اقتحمه عليها هذا الرجل الغريب . وعندئذ يبيّن لها مهمته كاملة ، ويشرح لها الأمر الربانى الذى هو مكلف به ، ودورها فى حمل هذا النبى الذى سيكون رحمة للناس وآية . .

ثم تجيء فجوة فى السياق يملؤها الخيال . .

مشاعرها المختلفة المتداخلة . الفزع الذى يهدأ تدريجيًا وتحل محله الطمأنينة إلى قدر الله ، والخوف مع ذلك من نتائج هذا القدر المنظورة ، من مواجهة أهلها بغلام تحمله من غير زواج معلن معروف !

وتستمر الفجوة حتى يفجأها المخاض ، ويفجؤنا نحن مشهدها فى حالة المخاض !

ومرة أخرى تواجه الفزع . . وحيدة بغير تجربة . . يلجئها الألم إلى جذع النخلة ، لا تدرى ماذا تصنع بغير معين ، ويستولى عليها الخوف من المواجهة والفضيحة المتوقعة . . كل ذلك فى آن واحد ، فتتمنى أن لو كانت ذهبت من الوجود وصارت نسيًا منسيًا . .

ومرة أخرى تنزل عليها الطمأنينة من عند الله ، يناديها جبريل (أو عيسى عليه السلام) ألا تخاف ولا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريًا . . فهذا هو الماء تشرب منه وتغتسل به ، وهذا هو الرطب يتساقط ، وهذا هو الأنس بالمتكلم إليها يسرى عنها ويزيل عنها جزعها ووحشتها .

وتمر فجوة أخرى تجيء بعدها مفاجأة المواجهة . . وإن كنا نرى مريم هنا ـ كما نتوقع ـ ثابتة الجنان وقد اطمأنت إلى رحمة الله وآياته السابقة معها ، فلم تعد تخاف .

وينتهى المشهد بالمفاجأة الأخيرة فى الموقف . . الطفل الوليد يتكلم ويقول : « إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيًا . . . » .

هذه الطريقة فى العرض التى تجمع بين الحوار والسرد ، وترسم اللقطات البارزة وتترك الفجوات للخيال ، تعطى القصة كلها حيوية واضحة ، وتجعل أثرها فى المشاعر عميقًا لايزول .

ولكن فيم كانت القصة التى يبلغ تأثيرها فى الوجدان هذه الأعماق ؟

إنها ـ هنا ـ تجىء فى معرضين متداخلين متكاملين [١] .

فهى من ناحية قصة قائمة بذاتها تَرِدُ ردًا على قول النصارى إن عيسى ابن الله ، حيث يجىء التعقيب عليها هكذا :

« ذلك عيسى ابن مريم ، قول الحق الذى فيه يمترون . ما كان لله أن يتخذ من ولد ، سبحانه ، إذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون . وإن الله ربى وربكم فاعبدوه . هذا صراط مستقيم . فاختلف الأحزاب من بينهم ، فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم . أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا . لكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين . وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون . إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون»[٢] .

وهى من هنا تتعلق تعلقًا مباشرًا بقضية الألوهية وبيان حقيقة الوحدانية ، وحقيقة وضع البشر جميعًا بما فيهم عيسى عليه السلام : أنهم كلهم عبيد الله ، وما ينبغى لهم أن يكونوا غير ذلك . فعيسى يجىء على لسانه : « إنى عبد الله » . والتعقيب يجىء فيه : « ما كان لله أن يتخذ من ولد ، سبحانه ، إذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون » .

ثم هى ـ من ناحية أخرى ـ تجىء ضمن مجموعة من قصص الأنبياء من الذين أنعم الله عليهم نعمًا كبيرة ظاهرة ، منها نعمة الاصطفاء بالرسالة والوحى ، ونعمة المعجزات التى أيدهم الله بها لتكون عونًا لهم فى أداء الرسالة ، بالإضافة إلى نعمه المباركة لهم فى الأهل والذرية ، ورفع مكانتهم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة . وتبدأ السورة بذكر زكريا : «كهيعص . ذكر رحمة ربك عبده زكريا . . » ثم تتوالى القصص بعد قصة زكريا مبدوءة بقوله تعالى : «واذكر فى الكتاب . . » فيجىء على التوالى : « واذكر فى الكتاب مريم . . » واذكر فى الكتاب إبراهيم . . » واذكر فى الكتاب موسى . . » « واذكر فى الكتاب إسماعيل . . » «واذكر فى الكتاب إدريس . . » .

ثم يجىء التعقيب الأخير عليها جميعًا : « أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم ، وممن حملنا مع نوح ، ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل ، وممن هدينا واجتبينا ، إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدًا وبكيًا . فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة

---

(١) تحدثنا فى مكان آخر من هذا الفصل عن الأغراض التى يجىء القصص من أجلها فى القرآن .

(١) سورة مريم : ٣٤ ـ ٤٠ .

واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيًّا . إلا من تاب وآمن وعمل صالحًا فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئًا . . . »[1].

وهو سياق متصل بقضية الألوهية كذلك من أكثر من جانب .

فالمعجزات ـ وأبرزها هنا خلق عيسى بغير أب ـ هى من ايات القدرة الربانية ، التى تجىء فى القرآن فى سياق تعريف الناس بربهم : أنه هو القادر سبحانه ، الذى لا تقف قدرته عند حد ، والذى لا يعجزه شىء فى الكون ، لأنه يقول للشىء كن ، فيكون .

والنعم التى أنعمها الله على الرسل والأنبياء المذكورين فى السورة كالإنعام بالولد على زكريا فى كبرته وامرأته عاقر (وهو يدخل فى باب المعجزة كذلك) والإنعام على مريم بحمل واحد من الرسل المكرمين (وهو داخل فى باب المعجزة كما أسلفنا) والإنعام على إبراهيم فى كبرته كذلك بإسحاق وبرؤية يعقوب بن إسحاق فى حياته ، وجعلهما كليهما نبيين ، والإنعام على موسى بمناجاة ربه له فى جانب الطور الأيمن وإرسال هرون معه نبيًّا ، والإنعام على إسماعيل بالرسالة وبالمقام المرضيّ عند الله ، والإنعام على إدريس بالمكانة العالية . . كل هذه النعم تسرد كذلك فى مقام تعريف الناس بربهم : أنه هو المنعم الوهاب .

وأخيرًا يجىء موقف هذه الطائفة المصطفاة من عباد الله ، كيف كانوا يقفون فى مقام العبودية الحقة لله : « إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجّدًا وبُكِيًّا » وكيف خَلَفَ من بعدهم خَلْفٌ خرجوا على مقام العبودية واتبعوا الشهوات ، وتختتم الآيات ببيان مصير هؤلاء يوم القيامة ، ومصير من يتبع الحق ويتوب إلى الله .

وهكذا نجد هذا العرض الأخاذ فى القصة سائرًا كله فى خدمة القضية الكبرى . . قضية التعريف بالله .

* * *

وكما يتحدث الكتاب عن أحداث الماضى فيبث فيها هذه الحيوية المبدعة يتحدث كذلك عن أحداث المستقبل .

« فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة ، وحملت الأرض والجبال فدكتا دكةً واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة ، وانشقت السماء فهى يومئذ واهية ، والمَلَكُ على أرجائها ، ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية . يومئذ تُعْرَضُون لا تخفى منكم خافية . فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول : هاؤم اقرأوا كتابيه ! إنى ظننت أنّى ملاقٍ حسابية . فهو فى عيشة راضية ، فى جنة

---

(١) سورة مريم : ٥٨ ـ ٦٠ .

عالية ، قطوفها دانية : كلوا واشربوا هنيئًا بما أسلفتم فى الأيام الخالية . وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول : يا ليتنى لم أوت كتابيه ! ولم أدر ما حسابيه ! يا ليتها كانت القاضية ! ما أغنى عنى ماليه ! هلك عنّى سلطانيه ! خذوه فغلوه ! ثم الجحيم صلّوه ! ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعًا فاسلكوه ! إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ، ولا يحض على طعام المسكين . فليس له اليوم ها هنا حميم ، ولا طعام إلا من غسلين ، لا يأكله إلا الخاطئون ! » [1] .

ذلك مشهد من مشاهد القيامة الكثيرة فى القرآن . . يبدأ بنفخة الصور يجيء بعدها حمل الأرض والجبال ودكّها دكّة واحدة فإذا هى تصبح بهذه الدكة الواحدة « قاعًا صفصفا ، لا نرى فيها عوجًا ولا أمْتًا » كما جاء فى سورة طه [2] . ويُتْرَكُ لخيال أن يتصور القبضة الهائلة التى تحمل الأرض بما عليها من الجبال فتدكها دكة واحدة فتسوى أعلاها بأسفلها ! كما يترك للخيال كذلك أن يتصور مدى الدويّ الذى تحدثه هذه الدكة الجبارة ، ومدى الغبار الذى تثيره فى الفضاء ! .

إن منظر انهيار بيت واحد أو جدارٍ واحدٍ من بيت ليثير الفزع فى النفوس ، سواء بالدويّ الذى يحدثه ، أو الغبار الذى يثيره ، أو بحركة الانهيار ذاتها ، وهى حركة مفزعة لكل الكائنات الحية على السواء ! فما بالك بجبل كامل ينهار ! وما بالك بجبال الأرض كلها تنهار فى لحظة واحدة على غير انتظار ؟!

إن الخيال ليحاول أن يرسم الصورة ، وأن يتخيل اليد الجبارة التى يمكن أن تحدث هذه الدكة الهائلة ، ولكنه لن يستطيع ذلك إلا بجهد ، فإن أقصى المعهود ـ فى عالم البشر ـ أن يتمكن الإنسان من حمل بضع عشرات من الكيلو جرامات ، أو بضع مئات . والقرآن يقول : « وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعًا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه . سبحانه وتعالى عما يشركون » [3].

ونعود إلى سياق الآيات من سورة الحاقة . .

ماذا يحدث إذا نفخ فى الصور نفخة واحدة ، وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة؟

ماذا بعد هذا الدويّ المفزع والدمار الشامل المرعب للوجدان ؟!

« فيومئذ وقعت الواقعة » !

ويكفى هذا البيان المختصر بعد ما كان من تلك المقدمات !

ولكن الهول ليس فى الأرض وحدها ، فهو شامل للكون كله بما فى ذلك السماء التى انشقت وتهاوت :

---

(١) سورة الحاقة : ١٤ ـ ٣٧ .   (٢) سورة طـه : ١٠٦ ـ ١٠٧ .   (٣) سورة الزمر : ٦٧ .

« وانشقت السماء فهى يومئذ واهية » .

ثم إن الرهبة تحيط بالموقف من كل جانب :

« والمَـلَكُ على أرجائها ، ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » .

وماذا يحدث عندئذ ، فى هذا الهول الشامل ، والرهبة الرهيبة التى تقطع الأنفاس ، والتى تصفها سورة طه : « وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسًا » (١) « وعنت الوجوه للحيّ القيوم » (٢) . . .

« يومئذ تُـعْـرَضُونَ لا تخفى منكم خافية » !

ترى أى الهولين أشق على النفس ؟! هول المشهد الرهيب من خارج ؟ أم هول العرض الذى تنكشف فيه خبايا النفوس فلا يملك أصحابها أن يخفوا شيئًا مما بداخلها ، أو يكتموا دليلاً واحدًا يدينها أمام بارئها؟!

إن انكشاف الإنسان فى أمر واحد من أمور الدنيا يحاول إخفاءه ليحدث فى نفسه رجة عنيفة ويهزها هزًا . . وهو انكشاف أمام بشر مثله . فكيف بالانكشاف أمام الله . . وفى الموقف الذى يترتب عليه كل شىء . . فإما إلى الجنة وإما إلى النار ؟!

وتجىء بعد ذلك صورتان متقابلتان : صورة المؤمن الذى تجاوز الخطر وأدخل النعيم والكافر الذى وقع فى الخطر فزج به إلى النار . . كلتاهما صورة حية شاخصة حافلة بالحركة والحياة . المؤمن ـ فى فرحته ـ يقول : هاؤم اقرأوا كتابيه ! ثم إذا هو فى الجنة العالية ذات القطوف الدانية يتمتع بذلك النعيم . والكافر ـ فى هلعه وندمه الذى لا يغنى ـ يقول : ياليتنى لم أوت كتابيه ! ثم يقف يولول على ما فاته وما صار إليه ، وتطول ولولته لحظة . . ثم إذا أَمْـرٌ صادر من أعلى ، يقطع عليه ولولته فجأة : « خذوه فغلّوه » ! وعندئذ يؤخذ أخذًا فيقذف به إلى النار !

* * *

« وبرزوا لله جميعًا فقال الضعفاء للذين استكبروا : إنّا كنّا لكـم تبعًا فـهل أنتم مغنون عنّا من عذاب الله من شىء ؟ قالوا : لو هدانا الله لهديناكم ! سـواء علينا أجزعنا أم صبرنا ! مالنا من محيص ! وقال الشيطان لما قُضِيَ الأمر : إن الله وعدكم وعد الحقِّ ووعدتكم فأخلفتكم ! وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لـى فـلا تلومونى ولومـوا أنفسكم! مـا أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخيّ! إنى كفرت بما أشركتمونِ من قبل! إن

---

(١) سورة طـه : ١٠٨ . (٢) سورة طه : ١١١ .

الظالمين لهم عذاب أليم ! وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناتٍ تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم ، تحيتهم فيها سلام »[1] .

هذا مشهد آخر من مشاهد القيامة يصف موقف طائفة من الناس كانوا مستضعفين فى الدنيا ، يطيعون سادتهم وكبراءهم فى المخالفة عن أمر الله ، وتبدو أوامر سادتهم فى حسهم أثقل من أوامر الله ، كأنما يتوهمون أنهم فى حِمِىً من سادتهم هؤلاء لا يستطيع أحد أن يطولهم أو يمتد إليهم بمكروه !

ثم هم أولاء فى الآخرة وقد برز الناس جميعًا لربهم . والتعبير يصور الناس وقد قاموا من قبورهم لملاقاة الله فلا يقول : جاءوا . . أو نهضوا . . وإنما يقول « برزوا » وهى لفظة يبدو فيها الجهد من ناحية ، ومن ناحية أخرى عدم إمكان استخفائهم ، فهم جميعًا « بارزون » أرادوا أو لم يريدو ! بما يتضمنه ذلك من بروز ما فى داخل أنفسهم كذلك وعدم إمكان استخفائه على الله : « وبرزوا لله جميعًا » !

ثم ها هم أولاء الضعفاء وقد رأوا الهول المذهل يتوجهون لكبرائهم ـ بحكم العادة ! ـ يحاولون الانطواء فيهم والاحتماء بهم :

« فقال الضعفاء للذين استكبروا : إنا كنّا لكم تبعًا ، فهل أنتم مغنون عنّا من عذاب الله من شيء » ؟!

وفى موقف الضيق الذى لا يستطيع فيه هؤلاء الكبراء أن ينقذوا أنفسهم فضلاً عن غيرهم تأتى إجابتهم للضعفاء ضيقة مريرة : « لو هدانا الله لهديناكم » !

ثم يجىء تعقيب ساخر منهم ، يشملون فيه بالسخرية أنفسهم وأتباعهم فى آن واحد : «سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص !» .

ويبدو الموقف منتهيًا عند هذا الحد بين الضعفاء والذين استكبروا ، وقد شملهم الخزى جميعًا والمهانة واليأس والضيق ، وعلموا أنهم لا محيص لهم من العذاب . .

ولكن عنصرًا جديدًا يبرز فى الموقف يفجؤهم جميعًا ! إنه الشيطان الذى أغوى هؤلاء وهؤلاء فى الدنيا . أغوى « السادة » فأمرهم بمعصية الله وكفره ، وأغوى الضعفاء بطاعة السادة فيما يأمرونهم به من كفرٍ بالله .

إنه هنا « يبرز » لهم من حيث لم يحتسبوا ، فى الموقف الذى يبرز فيه كل شىء ، ويفاجئهم بمقالة تزيدهم حسرة على حسرات :

---

(١) سورة إبراهيم : ٢١ ـ ٢٣ .

« وقال الشيطان لما قضى الأمر : إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم » !

هكذا ! وفى هذه اللحظة بعد فوات الأوان يكشف لهم عن هذه الحقيقة ، حيث لامجال للتوبة ولا للعودة من جديد !

ويمضى الشيطان فى « شيطنته » إلى آخر المدى ، فيقف يعظهم ! حيث لا يزيد وعظه نفوسهم إلا ألمًا وحزنًا وحسرة !

« وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى ! »

وهذه فى ذاتها حقيقة ! فأى سلطان كان للشيطان عليهم ؟! هل هو قد أمسك بتلابيبهم وأكرههم على عمل من الأعمال ؟ إنما هو أغواهم فقبلوا الغواية ! فليتحملوا تبعة عملهم كما يقول لهم :

« فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ! » .

ولكن هل تخلّىٰ هو عن شيطنته وصار يقول الحق من أجل الحق ؟ كلا ! إنما يقوله لإيلامهم وليزداد شماتة فيهم !

« ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخيّ ! » .

حقيقة ! فلن يستطيع أحدهما بالفعل أن ينجد الآخر أو ينقذه من العذاب . . ولكنه يقولها لهم بكل شيطنة الشيطان ! فهو الذى أوقعهم بالغواية والخديعة والمكر ، واليوم يسحب نفسه من الموقف كأنه لم يصنع شيئًا على الإطلاق ، بل يزيدهم دهشة وألمًا وحسرة حين يتخلى تمامًا عن كل كلامه السابق :

« إنى كفرت بما أشركتمونِ من قبل ! » .

وليته يتخلى فقط ! بل هو يلقى التبعة عليهم بما هو « برىء » منه ! فهم الذين أشركوا به ! وهو يتبرأ الآن من ذلك !

ثم تختتم الآية بهذه العبارة : « إن الظالمين لهم عذاب أليم » . وسواء كانت تكملة لكلام الشيطان من قبل ، زيادة منه فى إيلامهم وإغاظتهم فى الموقف الحرج ، أو كانت من كلام رب العالمين تعقيبًا على الموقف كله ، فهى الحقيقة النهائية التى تحسم الموقف كله بالنسبة لأولئك الظالمين . .

وفى الوقت الذى ينال فيه الظالمون جزاءهم من العذاب الأليم ، يكون للمؤمنين جزاؤهم فى اتجاه آخر :

« وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم . . » .

والتعبير هنا يجمل القول بالنسبة للمؤمنين ، ويجمعه كله فى آية واحدة ، قصيرة نسبيًا ، معدودة الكلمات . . ولكنه فى الحقيقة يأخذ مساحة أكبر فى الحس ، بمقدار ما كان طول العرض بالنسبة للكافرين ! لأن الإنسان ـ بوعى « فنى » منه أو بغير وعى ـ يعقد مقارنة كاملة بين الموقفين ، بمقدار ما أخذ الموقف الأول المطول من مشاعره ، وهو يتتبع الحوار المؤلم بين الضعفاء والذين استكبروا ، وبينهم جميعًا وبين الشيطان ، فإن الموقف الآخر المقابل ـ وإن اختصرت كلماته ـ يأخذ مساحة مساوية ، تبعث فى النفس الراحة والطمأنينة والهدوء والسكينة ، وخاصة حين تجىء الخاتمة :

« تحيتهم فيها سلام » !

وذلك من روائع الطريقة القرآنية فى التعبير وفى التصوير .

* * *

بهذه الطريقة الفذة يعالج القرآن الواقع المشهود ، والماضى الذى مرّ ، والمستقبل المنظور. وبهذه الطريقة ينفذ إلى القلب البشرى من جميع منافذه فيستولى عليه . .

ولقد صنع القرآن ذلك فى قلوب الذين تلقوه أول مرة . . سواء منهم من أسلم وجهه لله وآمن ، ومن كابر وجحد : « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم » [(1)] كالوليد بن المغيرة الذى نزل فى حقه هذه الآيات :

« ذرنى ومن خلقت وحيدًا ، وجعلت له مالاً ممدودًا ، وبنين شهودًا ، ومهدت له تمهيدًا ، ثم يطمع أن أزيد ! كلا إنه كان لآياتنا عنيدًا . سأرهقه صعودًا . إنه فكر وقدر ، فقتل ! كيف قدر؟! ثم قتل ! كيف قدّر ؟! ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر ، فقال : إن هذا إلا سحر يؤثر ! إن هذا إلا قول البشر . سأصليه سقر . . . »[(2)] .

وكذلك ظل القرآن يصنع فى قلوب الأجيال المتتالية خلال أربعة عشر قرنًا . . وسيظل كذلك حتى تقوم الساعة ، يبعث ذات الهزة فى وجدان الذين يتلونه ببصيرة متفتحة : « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد »[(3)]

* * *

---

(١) سورة النمل : ١٤ . (٢) سورة المدثر : ١١ ـ ٢٦ . (٣) سورة ق : ٣٧ .

ولكن القرآن ، وهو يوقع على أوتار القلب الفطرية تلك التوقيعات المؤثرة العميقة ، بعد أن يزيل عنها « الران » الذى علق بها من آثار تبلد الحس . . لا يصنع ذلك من أجل تكوين « معلومات » جديدة عن الله سبحانه . . إنما من أجل « الإيمان بالله » . . وفرق هائل بين إنشاء معلومات عن أية قضية من القضايا وبين الإيمان بتلك القضية . .

إن « المعلومات » مهما كانت حية فى حينها ، جديدة ولامعة ، لابد أن ينطفئ لمعانها بعد فترة ، وتنطمس معالمها . . فتموت ! ولا تعود تعطى ذلك الإشعاع المشرق الذى يمكن أن تعطيه فى مبدأ الأمر . فضلاً على أنها عرضة ـ دائمًا ـ أن تنحصر فى محيط الذهن ، فتصبح قضايا ذهنية لا علاقة لها بالواقع . . يدور الذهن فيها ويدور . . ثم يخرج من الدورة حيث كان ! ويظل السلوك البشرى سائرًا فى طريقه لا يتأثر بتلك القضايا الذهنية ولا يتغير . .

ولكن « الإيمان » شىء آخر مختلف تمامًا . . إنه يستند إلى تلك المعلومات . . نعم . . ولكن يستند إليها لينطلق منها ، لا ليبقى جاثمًا عندها ولا منحصرًا فيها . .

الإيمان حركة . .

الإيمان طاقة . .

حركة تجيش فى القلب فتحركه بوجدانات شتى ، وتبعث فيه انفعالات حية متدافعة لا تسكن ولا تهمد . . ولا تموت .

وطاقة تتفجر فى محيط النفس كلها فتحرك منها أدق ذراتها ، فَتُلْمَسُ آثارُها فى داخل النفس وفى خارجها . . عملاً وسلوكًا . . وأفكارًا ومشاعر . . كما تُلمس آثار الطاقة المغنطيسية والكهربية . . فى الآلة الدائرة والمصباح المنير . .

والذى كان القرآن ينشئه فى القلوب هو الإيمان بالله ، وليس مجرد المعرفة الذهنية بالله . . والذين يعرفون الله على طريقة الإيمان هم الذين يسميهم القرآن : « الذين يعلمون » ويصفهم بأنهم « أولو الألباب » :

« أفمن يعلم أن ما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ؟ إنما يتذكر أولو الألباب ، الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق . والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب . والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرًا وعلانية ، ويدرأون بالحسنة السيئة . أولئك لهم عقبى الدار . . . »[1] .

---

(١) سورة الرعد : ١٩ ـ ٢٢ .

وهكذا يتحول « العلم » بأن ما أنزل إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من ربه هو الحق، إلى عمل وسلوك ومشاعر ، لأنه يتحول من « معلومات » إلى « إيمان » . .

* * *

هذا « الإيمان » بالله هو الموضوع الرئيسى فى القرآن كله . وهو بطبيعة الحال الموضوع الرئيسى فى العقيدة . .

وحين كان القرآن فى العهد المكى يتنزل خلال ثلاثة عشر عامًا من الزمان لا يتحدث إلا فى العقيدة ، كان التركيز الأكبر ولاشك على الإيمان بالله ، لأنه هو الركن الأول والأكبر فى العقيدة ، ثم فى بناء الإسلام كله فيما بعد . . فى التنظيمات والتشريعات والتوجيهات . . .

والقرآن يوثّق هذا الإيمان فى القلب بأن يربط ذلك القلب بالله فى جميع أحواله . . لأنه يربط الأحوال كلها والوجود كله بالله . . والقلب البشرى ـ فى أى حالة من حالاته وفى أى لحظة من لحظاته ـ لابد أن يكون مرتبطًا بشىء ما فى هذه الحياة ، وشىء ما فى ذلك الوجود! فإذا كانت الحياة كلها والوجود كله مرتبطًا فى كل لحظة وفى كل حال بالله ، فقد ارتبط القلب البشرى بالله عن ذلك الطريق : خوفًا أو طمعًا . . رجاء أو خشية . .

فالمولد والممات بيد الله . .

والرزق بيد الله . . سواء كان الرزق مالاً أو جاهًا أو صحة أو أبناء أو أى لون من ألوان الرزق . . كلها بيد الله . .

والأحداث الجارية بالنفع والضر كلها بيد الله . .

والغيب المغلف بالأستار متعلق بعلم الله . . لأنه من صنع الله . .

هذا كله فى الدنيا . .

ثم البعث والحساب بيد الله . .

والثواب والعقاب بيد الله . .

فأى شىء يمكن أن يتعلق به القلب البشرى فى أية لحظة من لحظاته ليس بيد الله ؟

وأى لحظة من لحظات هذا القلب فى الدنيا أو الآخرة خارجة عن علم الله أو عن ملكوت الله وتدبير الله ؟

ومن ثم يعيش القلب البشرى فى هذا القرآن حياته كلها مع الله ، حين يطمع وحين يخاف . حين يرجو وحين يخشى . حين يحب وحين يكره . حين يكون فى واقعه وحين يكون

فى خياله . حين يعيش فى دائرة الحس وحين يستشرف ما وراء الحس . حين يكون وحده وحين يكون فى الجماعة . حين يؤدى شعائر التعبد وحين يكدح فى فجاج الأرض .

وتلك هى « بذرة الإيمان » التى يبذرها القرآن فى القلب لتؤتى ثمارها على الطريق . . طريق الإيمان !

* * *

هذه البذرة التى يتعهدها وينميها بالمزيد من التوقيعات على أوتار القلب . . من لفت الحس البشرى إلى ضخامة الكون الهائلة . إلى دقته المعجزة ، إلى الإحياء والإماتة ، إلى الأحداث الجارية وما وراءها من تدبير . . إلى بيان قدرة الله التى لا يعجزها شىء فى السماوات ولا فى الأرض . . إلى علم الغيب . . .

هذه البذرة تنمو بالتعهد الدائم لها فتتكون منها نبتة ذات ثمار . .

تتكون منها عبادة لله . . وطاعة لله . .

إن مقتضى شعور القلب البشرى الحق بألوهية الله وربوبيته أن يشعر بالعبودية الحقة لذلك الإلـٰه الذى عرفه على حقيقته ، وعرفه فى جميع صفاته . . فتكون العبودية الحقة مقابل الألوهية الحقة والربوبية الحقة . .

ويشعر القلب المؤمن بكرامته كلها فى تلك العبودية الحقة لله . . وبمقدار ما يخضع ذاته لذات الله ، ويسلم قياد ذاته لذات الله يكون أنسه وبشره وفرحه وانطلاقه وشعوره بالرضا . . وشعوره بالوجود ! لأنه بكل ذلك يقترب من الله فيشمله النور الربانى فيتغلغل فى ذرات كيانه . . فيحس بحقيقة الحياة . .

ولكن هذه المشاعر . . مشاعر العبودية . . والأنس بها والفرح والرضا والانطلاق ، ليست هى الغاية الأخيرة ولا القرار الأخير [1].

لابد من الطاعة لله . . وتلك هى الثمرة . . ثمرة العبادة لله ، والإيمان بالله . .

الطاعة لله فيما أمر به وما نهى عنه من أمر . .

الطاعة فى التكاليف « التعبدية » كالتكاليف « التشريعية » كتكاليف « الجهاد » فى الأرض . . كلها سواء . .

---

(١) عند هذه الغاية تقف معظم خطوات الصوفية ! وهم يصلون فى هذا الطريق ، طريق « تربية الروح » إلى مجالات شفافة رائقة مضيئة جميلة ولا شك . ولكن الطريق فى حقيقته لا ينتهى عند هذه الغاية ما لم يصحبها « العمل » الذى يترجم هذه المشاعر إلى واقع سلوكى فى كل مجالات الحياة التى أمر بها الله ، وإلا فسيظل كل هذا الجمال الروحى قاصرًا عن بلوغ الغاية من العبادة : « كلا ! لما يقض ما أمره » ! .

وبغير هذه الطاعة تظل المشاعر معلقة لا وزن لها فى واقع الأرض . . وتظل « العبادة » كذلك غير محققة فى واقع الأمر !

« وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » [١].

ولا تتم العبادة إلا بالطاعة . . ولا تتم الطاعة حتى تتمثل فى عمل وسلوك لا فى المشاعر فحسب . .

* * *

ولم تكن فى العهد المكى الذى استغرقه كله الحديث عن العقيدة ، ومعظمه فى الحديث عن الإيمان بالله . . لم تكن هناك « تكاليف » بالمعنى الذى جاء فيها بعد فى العهد المدنى ، سواء التكاليف (فيما عدا الصلاة) أو التكاليف التشريعية والتنظيمية أو الجهاد بالأنفس والأموال . . ولكن كان هناك الإعداد النفسى والروحى لهذه التكاليف . . كان الوصول بالبذرة الإيمانية إلى مرحلة التسليم لله والطاعة لله . . الطاعة من حيث المبدأ . . الطاعة فى الكبيرة كالصغيرة . . الطاعة حبًا لله . . وخشية لله . . وعبادة لله . .

وحين تمت تربية هذه القلوب على الطاعة لله ، وعلم الله منها صدقها وتجردها . . جاءت التكاليف . . فجاءت على قلوب قد استعدت لها من قبل . . فلم يكن هناك جهد فى الطاعة ، حتى وإن كانت التكاليف مجهدة كالصوم والقتال ، ولقد احتاجت بعض التكاليف إلى مجاهدة النفس ولاشك ، ولكن لتقوى على التكليف ذاته لا لتقرير مبدأ الطاعة الذى كان قد تقرر من قبل واستقر فى هذه القلوب !

« يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون . . أيامًا معدودات . فمن كان منكم مريضًا أو على سفر فعدة من أيام أخر. وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين، فمن تطوع خيرًا فهو خير له . **وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون**» [٢].

« كتب عليكم القتال **وهو كره لكم** . وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئًا وهو شر لكم . والله يعلم وأنتم لا تعلمون » [٣].

« ألا تقاتلون قومًا نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول ، وهم بدأوكم أول مرة؟ **أتخشونهم**؟! فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين » [٤].

---

(١) سورة الذاريات : ٥٦ .
(٢) سورة البقرة : ١٨٣ .
(٣) سورة البقرة : ٢١٦ .
(٤) سورة التوبة : ١٣ .

وهكذا . . وهكذا . . كانت بعض هذه التكاليف فى حاجة إلى المجاهدة المستمرة لتقوى النفوس عليها ، ولكن مبدأ الطاعة لم يكن موضع مراجعة من المؤمنين ، حتى وهم ينكلون أحيانًا عن التكليف ، ويتلقون على ذلك النذير :

« يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثّاقلتم إلى الأرض ؟ أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ؟ فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل . إلا تنفروا يعذبكم عذابًا أليمًا ويستبدل قومًا غيركم ولا تضروه شيئًا . . . » (١) .

« قل : إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله ، وجهاد فى سبيله ، فتربصوا حتى يأتى الله بأمره . والله لا يهدى القوم الفاسقين » (٢) .

* * *

وهكذا كانت التربية القرآنية على الإيمان بالله . . التى بدأت بقوله تعالى « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق . أقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم . . » (٣) ثم طوفت بالقلب البشرى فى مجالات الكون الواسع الفسيح . . فى السماوات والأرض والأفلاك . . فى المطر النازل من السماء ليحيي الأرض بعد موتها . . فى النبات المختلف الألوان والأشكال والمذاق . . فى الليل والنهار . . والقمر والنجوم . . فى أطوار الخلق من النطفة والعلقة والمضغة . . فى علم الله الشامل الذى يعلم الحبة فى ظلمات البر والبحر ، والورقة الساقطة من غصنها والثمرة المتفتحة فى كمها . . فى تدبير الله المحكم . . فى بسط الرزق وقبضه . . فى الإنسان وعجائب خلقه . . فى تأييد الرسل بالمعجزات ونصرهم على الكذبين . . فى كل ما حول الإنسان مما يقع بصره عليه وما لا يستطيع أن يراه . . طوفت به فى تلك المجالات كلها ليرى الله أمامه فى كل شيء ، ومعه فى كل لحظة ، ورقيبًا عليه فى كل عمل أو فكر أو هاجسة أخفى من السر . ثم لتقول له إن هذا الإلـه القادر هو الذى سيحاسبه يوم القيامة وليس من لقائه مفر ، ولا من حسابه مفر . . وأن له على خلقه الذى خلقه حق العبودية وحق الطاعة له وحده دون شريك . . لأنه هو الله الواحد الذى ليس له شريك . .

تلك هى الثمرة . .

---

(١) سورة التوبة : ٣٨ـ٣٩ . (٢ سورة التوبة : ٢٤ . (٣) سورة العلق : ١ـ٥ .

توحيد الألوهية والربوبية . . لتوحيد الطاعة وتوحيد العبودية . .

إلّـه واحد . . ومعبود واحد . .

لا إلّـه إلا الله . . أى لا معبود إلا الله . . ولا طاعة إلا لله . . وإلا فهى عبادة الشيطان، وطاعة الشيطان . .

وذلك هو المعنى الحقيقى للا إلّـه إلا الله ، الذى كان القرآن فى العهد المكى كله يتنزل لتثبيته فى القلب وترسيخه وتوثيقه . . لأنه المعنى الذى تقوم عليه الحياة الإيمانية كلها : فلا تعبد إلا الله فى عقيدة القلب ، ولا تعبد إلا الله فى شعائر التعبد ، ولا تعبد إلا الله فى التشريعات والتنظيمات التى تنظم علاقات البشر بعضهم ببعض . .

وما كان هذا الجهد كله الذى بذل فى العهد المكى ـ واستمر فى العهد المدنى ـ ليعلم الناس أن هناك إلهًا ، فهم يعرفون ذلك بالفطرة بلا كتاب ولا رسول ، ولا ليعبدوا ذلك الإله بأى نوع من أنواع العبادة ، فهم يقومون بذلك من تلقاء أنفسهم !

إنما كان ليعلموا أنه إله واحد لا شريك له ، فيعبدوه وحده بلا شريك . . ويعبدوه كما أمرهم هو سبحانه أن يعبدوه . . لا على هوى أنفسهم ثم يزعمون أنهم عبّاد . . ومخلصون!

« اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء . قليلاً ما تذكرون » (1).

فالعبادة الطاعة . . والطاعة اتباع ما أنزل الله . .

(١) سورة الأعراف : ٣ .